

"بسم الله الرحمن الرحيم"

جامعة الأزهر
كلية أصول الدين والدعوة بأسبوط
الدراسات العليا والبحوث
قسم الدعوة والثقافة الإسلامية

الدعوة الإسلامية في العصر المملوكي

رسالة جامعية للحصول على درجة التخصّص "الماجستير"

إعداد الباحث
أحمد رفاعي إسماعيل

إشراف
الأستاذ الدكتور / هاشم عبد الظاهر إبراهيم

عميد كلية الدراسات العليا والاسلامية بقنا
والأستاذ بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية
بكلية أصول الدين والدعوة الإسلامية بأسبوط

١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م

شكر وتقدير وإجلال

* شكر وتقدير واجلال *

أما الشكر فله وحده الذى من على بهذا الفضل العظيم
وهذه المنزلة الرفيعة . لذلك فأننى مقلبة - سبحانه
وتعالى - بالشكر إلى أن يرت الأرض ومن عليها
* وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها *

وأما التقدير والإجلال فلا ستأذى وشرفى الغاضل
والأب الرحيم الأستاذ الدكتور / هاشم عبد الظاهر
الذى لمست فيه خصالا قلما اتصف بها غيره . وهذه
حقيقة لا مجاملة ، وواقع لا خيال .

لقد وجدت طيب القلب ، ضاقي السيرة ، ذا نزاهة
وخلق كريم فقد ^{عمر} أمرنى بإرشاداته وتوجيهاته وكان يحمل
هى أكثر من نفسى فجزاء الله عنى وعن الإسلام والمسلمين
خير الجزاء

* إن ربي قريب مجيب *

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي قال "وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا
وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ" (١) وأشهد ألا إله إلا الله المعز المذل السميع البصير
الذي إن أراد بعبد خيرا فقهه في الدين .
وأصلي وأسلم على من عثرته خير عترة ، وشجرته خير شجرة ، نبئت في حرم ،
وبسقت في كرم ، النبي الأُمي الذي علم المتعلمين والذي نشر بالساحة والآفاق
مبادئ الإسلام والدين ، فأثارت بنوره البلدان شرقا وغربا .

أما بعد :

فلن الناظر بعين المستطلع لأغوار التاريخ الإسلامي يعلم بما لا يدع مجالا
للشك أن الدولة المملوكية شغلت فترة كبرى وزمتا طويلا من مسيرة الإسلام
والمسلمين ومن تاريخهم المشرق العريق ، لقد شكلت الدولة الإسلامية
المملوكية هي ومثيلاتها من الدول الإسلامية القلعة الحصينة لهذا الدين ،
ووقفت تلك الدول شامخة في وجه الطامعين سواء من الصليبيين أو التنسار
أو غيرهم من ^{حاولوا} ~~استأصل~~ شأفة هذا الدين ، فما زلنا نذكر إلى يومنا هذا
بطولات المنصورة ، وعين جالوت ، وسقوط قلاع الصليبية العالمية ، والتتسار
الهمج تحت معاول دولة المعاليك المسلمة .

هذه الدولة التي لم تكن عربية المنشأ ، ولكنها أثبتت بكل جدارة أن
الإسلام لم يأت لأناس دون أناس ، وأن دعوة هذا الدين جاءت إلى الناس
جميعا ، أسودها وأبيضها ، أحمرها وأصفرها .

(ب)

• إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ^(١) •

ونظراً لما قدمته تلك الدولة من خدمة للإسلام والمسلمين اخترت عنها

موضوعي هذا •

* سبب اختياري للموضوع :

١ - إِنَّ الدولة المملوكية أثرت تأثيراً كبيراً في تاريخ الإسلام والمسلمين بفضل دعائها ومنشأتها وانتصاراتها المدوية التي أنقذت البشرية من بحر من الدماء •

٢ - تعرضت الدولة المملوكية إلى كثير من الغبن والظلم من جانب بعض الباحثين المستشرقين الحاقدين على الإسلام والمسلمين ، وقالوا عنها إنها كانت دولة الرقيق والعبيد ، وقالوا إنها أكلت أموال الشعب ، وإنها دولة الصراعات والنهب والسلب ، فكان من واجبي كعالم أن أدفع عن تلك الدولة المسلمة الغبن والجور الذي أحاط بها •

٣ - حققت دولة المماليك في مجال الدعوة الإسلامية نظاماً يمكن أن تستير عليه دعوة المسلمين في أي عصر من العصور بنظامها ونظمها الإسلامية ومنشأتها الدعوية واهتمامها بالعلم والعلماء والمساجد والمدارس العلمية •

٤ - تحقيق العبرة المرجاة القائلة أن المتمسك بحبل الله ما ضل وما قفل وما ذل وهذا ما شاهدناه في تلك الدولة ، فعندما تمسكت بحبل الله المتين قويت وعزت وانتصرت ، وحين تخلت بعض التخلي حدثت فيها الفتن والمنازعات وكان ذلك سبباً لسقوطها في النهاية ، ولله

(ج)

الأمر من قبل ومن بعد يعز من يشاء ويذل من يشاء .
محتوى البحث
منهجى فى البحث :-

وقد اشتمل هذا البحث على : مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة

أما المقدمة : فقد ذكرت فيها :-

- أ - سبب اختيارى للموضوع .
- ب - منهجى فى البحث فيه .

وأما الباب الأول :

عنونته بعنوان " الماليك " وقسمته إلى ثلاثة فصول :-

الفصل الأول : تحدث فيه عن الماليك من حيث أصلهم ونشأتهم والاختلاف حولهم وكيفية جلبهم وكيفية تربيتهم ودرهم فى دولة الإيويين السابقة لهم .

الفصل الثانى : - تحدث فيه عن الحياة السياسية والاجتماعية فى العصر الملوكى .

الفصل الثالث : الحركة العلمية فى العصر الملوكى تحدث فيه عن تنظيم التعليم وأنواعه وبعض مدارس وختمت الفصل بمظاهر الحركة العلمية فى ذلك العصر وأسباب ازدهارها .

وأما الباب الثانى :

فقد عنونته بعنوان " المظاهر العامة للدعوة الإسلامية فى العصر الملوكى " وهو أهم الأبواب بل هو لب الرسالة وعمودها وقد احتوى على أربعة فصول .

الفصل الأول : تحدث فيه عن دور سلاطين الماليك في خدمة الدعوة

الإسلامية .

والفصل الثاني : تحدث فيه عن دور سلاطين الماليك في الدفاع عن البلاد

الإسلامية .

والفصل الثالث : تحدث فيه عن دور الفتوحات الإسلامية في العصر المملوكي

وأثرها في خدمة الدعوة الإسلامية .

والفصل الرابع : تحدث فيه عن أبرز علماء العصر المملوكي وأثرهم في نشر

الدعوة الإسلامية .

وأما الباب الثالث والأخير فقد عنوانته بعنوان " الدولة المملوكية بين الشبهات

والسقوط " . وقد اشتمل ^{على} فصلين :

الفصل الأول : تحدث فيه عن المزاعم والمفتريات التي أفتريت على تلك الدولة

المملوكية ، وقد رفعت ^{دافعت} فيهما وفقى الله الغبن عنهم .

الفصل الثاني : تحدث فيه عن أسباب وكيفية سقوط ونهاية دولة الماليك

الإسلامية .

وقد زيلت هذا البحث بخاتمة ذكرت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها .
وبعد : فقد دانت هذه السطور لراقمتها بالشكر العميق وقدمت فيها قدر

طاقتي ، غير أن سياط الزمن أصابت بعض نقاطها في مقتل ، وهذا إن دل

فإنما يدل على بشريتي وقلة حيلتي إن لم يسعفني رب العالمين ، فإن أصبت

فمن عند الله وإن أخطأت فمن نفسي ، والله الأمر من قبل ومن بعد هــ

مولاي ، وعلى الله فليتوكل المتوكلون .

الباب الأول

الماليــــــــــــــــــــك

ويشتمل على ثلاثة فصول :

- * الفصل الاول : نشأة الممالك
- * الفصل الثاني : الحالة السياسية والحياة الاجتماعية في العصر المملوكي
- * الفصل الثالث : الحركة العلمية في العصر المملوكي

الفصل الأول
نشأة الممالك

الباب الأول

"الماليك"

الفصل الأول

"نشأة الماليك"

أصل الماليك :

أحوال وأعمال

للبحث في طبيعة الماليك تثور تساؤلات عديدة مثل من هم الماليك ؟

هل هم أرقاء • أم أحرار ؟ وكيف أصبح ملوك اليوم سلطان الغد ؟

وفي الحقيقة أن المؤرخين اختلفوا في هذا الشأن اختلافا كبيرا فمنهم من

عامل الماليك في كتاباته على أنهم رقيق اغتصبوا الحكم دون أن تكون

لهم أهلية الولاية لأمر المسلمين بل أن هؤلاء الكتاب لم يكتفوا بذلك بل حاولوا

الحط من قدر سلاطينهم وأمرائهم في أكثر كتاباتهم بأنهم عرضوا بأصلهم

الوضيع وما مروا به من رقي وعبودية فكان ذلك التشهير والحط من قدر أولئك

الرجال الذين كانوا يوماً من الأيام سادة هذه البلاد وحكامها .

ونفى عنهم البعض صفة الرق نهائياً مثل الدكتور/ عبد المنعم ماجد

حيث يرى أن كلمة (ملوك) في أصلها اللغوي مستخرجة من فعل (مَلَكَ) لتعني

الرقيق الذي يشتري بقصد تربيته والاستعانة به كجند وحكام على عكس لفظة

(العبيد) مفرد ها (عبد) ومؤنثها (أمة) التي استعملت في العصر العباسي

الأول . وذلك أن الإسلام يميله الإنسانية كان يرفع من شأن الرقيق إذ أن

لفظة العبيد تعني العبودية^(١) والعبد يولد من الرقيق بينما الملوك يولد من

(١) انظر / راسم رشدي : مصر والشراسة ص ٤٥ القاهرة ١٩٤٨ م .

(٢) انظر د / عبد المنعم عبد الماجد : طومان باي آخر سلاطين

الماليك في مصر ص ١٢ : مكتبة الانجلو المصرية

ط ١٩٧٨ .

وعليه مؤاخذات في نسب الرسل

وأرى

إن

أبوين حرين . ويباع^(١) . ولكن نرى خلاف ذلك حيث المملوك الذى يولد من أبوين حرين ويباع يعتبر رقيقا . إن أن الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم استرقوا بعض الأسرى طبقا لقاعدة المعاملة بالمثل وهم لم يبيحوا الرق فى كل صورة من صورهم كما كان فى الشرائع الإلهية والوضع السابفة وإنما حصروا نسي الحرب المشروعة المعلنه من المسلمين ضد عدوهم الكافر^(٢) . أى أن أسير الحرب يعتبر رقيقا رغم أنه من أبوين حرين . وبناء على ما سبق يمكن أن يكون المملوك رقيقا ويؤكد ذلك ما ورد فى القاموس القويم فى تعريف لفظ (العبد) . فالعبد بالنسبة لله إلا نسان الحر أو الرقيق وكلاهما مملوك لله خاضع لحكمه وأرادته أما العبد بالنسبة للإنسان : الرقيق المملوك ويجمع على جموع منها عباد وعبد : كخدم ، وعبد : ومن ذلك قوله تعالى "وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ"^(٣) . وخلاصة القول فى المالك الذين نحن بصدد الحديث عنهم : أنهم فى الأصل رقيق مستجلب من أصول قفجاقية^(٥) تركية أو شركسية من جنوبى روسيا القوقاز . وكان هؤلاء يصلون إلى القاهرة صبانا عن طريق الشراة أو فتينا أو أسرى حرب أو هربا من دولة صديقة أو حليفة وفى القاهرة كانوا يخضعون لتربية عسكرية أو إسلامية لعدة أعوام حتى إذا انتهى تدريبهم

(١) انظر د . أحمد شلبى موسوعة التاريخ الاسلامى ص ٢١٥ : ٢١٨ حيث

يتفق فى ذلك والدكتور عبد المنعم ماجد .

ويتفق فى ذلك لرأى د . راسم رشدى مصر والشراكسة ص ٥ : ٤٨

القاهرة ١٩٤٨ .

(٢) انظر السيد سابق : فقه السنه ج ٣ ص ٨٨ .

(٣) ابراهيم أحمد عبد الفتاح : القاموس القويم للقرآن الكريم ج ٢ ص ٣

الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٣ م .

(٤) سورة الفرقان آية رقم ٦٣ .

(٥) قفجاقية :- تشمل بلاد القفجاق حوض الفلجه والأراضى التى حول بحر

قزوين .

المقدمة

جرى تحريرهم (عتقهم) وضمهم إلى الهدمية العسكرية المملوكية ^(١) .
فالثابت أن المماليك كانوا يعتقون عند ما يسلكون في الوظائف السلطانية
أو بذلك اكتملت أهلية المماليك في تولي أمور المسلمين وذلك ما نراه واضحاً في
موقف العزيز بن عبد السلام حيث رفض مبايعة الظاهر بيبرس باعتباره مملوكاً
غير كامل الأهلية ولا تجوز له الولاية ولكن الظاهر بيبرس أثبت أنه أعقق فبايعة
الشيخ وعلماء ذلك العصر . ولكن كيف وصل مملوك اليوم سلطان الغد ذلك
ما سنتعرض له من خلال الآتي :-

أولاً : ظهور المماليك في العالم الإسلامي :

يرجع ظهور المماليك في العالم الإسلامي إلى ما قبل قيام دولتهم بأمد
طويل وربما كان أول من استخدمهم هو الخليفة المأمون العباسي ١٩٨ هـ -
٢٤٨ / ٨١٣ - ٨٣٣ م إذ كان في بلاطه بعض المماليك المعتوقين ثم
استخدم الخليفة المعتصم العباسي ٢١٨ هـ - ٢٢٧ / ٨٣٣ - ٨٤٣ م فرسان ^{حرفه}
التركان لتدعيم سلطانه ^(٢) . وهكذا لعب المماليك دوراً بارزاً في تدعيم سلطان
الخليفة .

أدى

ثانياً : ظهور المماليك في مصر :

اعتمد أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية التي قامت في مصر
سنة ٢٥٤ - ٢٩٢ هـ / ٨٦٨ - ٩٠٥ م على المماليك ^{في ما إذا؟} ويمكن القول بأنه أول من
استخدم المماليك في مصر في جيشه وجلبهم إليها بأعداد ضخمة . ^{تأسيس}
دولة

(١) انظر ابن العمري مسالك المماليك ص ٤٦

(٢) انظر د . علي إبراهيم حسن : تاريخ المماليك البحرية ص ٢٣ النهضة

المصرية ط ١٩٦٣

رجاء المالك من

قيل إنهم بلغوا أربعة وعشرين ألف مملوك ، رجاء ~~بن التمكن~~ استقلال مصر عن الخلافة العباسية ولم يكن الأغشديون أقل من أحمد بن طولون ~~فسي~~ استخدام المالكة^(١) . وكذلك لجأ الفاطميون حين انتقل لهم حكم مصر سنة ٣٥٨ - ٥٦٧ هـ / ٩٦٩ - ١٠٧١ م حيث كانوا في حاجة إلى جيش كبير يستطيعون به حماية سلطانهم فلجأوا إلى الأتراك وشراء المالكة . فلما قامت الدولة الأيوبية في مصر ٥٦٧ / ٦٤٨ هـ / ١٠٧١ - ١٢٥٠ م جلب سلاطينها أعداداً ضخمة من المالكة واعتمدوا عليهم في جيشهم وبناء قوتهم وقد راجعت تجارة الرقيق من الجيش التركي والشركسي في أواسط آسيا وفي غربها فابتاع الملك الصالح نجم الدين أيوب عدداً من هؤلاء الأرقاء فرباهم تربية عسكرية وأنزلهم بجزيرة الروضة وهو لا سموا بالمالكة البحرية^(٢) وقد ارتقى عدد منهم إلى المناصب الكبيرة أمثال فارس الدين أقطاي وعزالدين أيك ، بيبرس وقلان .

ثالثاً : طريقة تربيتهم :

نوعاً

لعله من المناسب أن تلقى الضوء على تربية هؤلاء المالكة فالتربية تلعب دوراً هاماً في تكوين الشخصية وسلوكها وكانت تربية هؤلاء المالكة وتدريبهم تمر بمراحل متعددة ، فإن تجار الرقيق يجلبون أعداداً منهم يعرضونها على السلاطين ، وكان السلاطين يختارون أحسنهم حجة وذكاءً فإذا تمت عملية الشراء وضعهم السلاطين في أبراج خاصة بهم ورتبوا لهم من الفقهاء

(١) انظر / د . فايد حماد عاشور : العلاقات السياسية بين المالكة

والمغول في الدولة المملوكية الأولى ص ٢٠ ودار المعارف ط ١٩٨٢ .

(٢) د . محمد محمد خليفة وذكى على سويلم : الأدب الغربي وتاريخه

والعلماء من يلقنهم الدين والعلوم ويأخذهم بملازمة الفرائض^(١) . ولعل ذلك يفسر بلوغ بعض سلاطين المماليك مرتبة العلماء كالسلطان الملك المؤيد وغيره .

ويفسر لنا أيضا الحرص البالغ لسلاطين المماليك في الدفاع عن المسلمين وجهادهم العظيم ضد الصليبيين والتتار والذي يبحث في تلك المعارك يتضح له أن هؤلاء القوم لم يجاهدوا لغرض من أغراض الدنيا وإنما لأعلاء شرع الله . فكانت تلك المرحلة من مراحل التربية بمثابة قواعد لبنان الدولة المملوكية . وبعد انتهاء هذه المرحلة ووصول المملوك إلى سن الشباب يوكل إلى مدرسين عسكريين لتلقينهم النظم العسكرية وفنون الحرب وبعد ذلك ينتقل لخدمة سيده ليلحق بحرسه الخاص أو بديوانه أو بجيشه . وسواء كان عمله هنا أو هناك فإن مواهبه قد تدفعه إلى الصدارة^(٢) وتولى الحكم

رابعاً : كيفية انتقال السلطة من الدولة الأيوبية إلى الدولة المملوكية :

بعد أن مات الملك الصالح الأيوبي انتقلت السلطة إلى ابنه الملك العظيم توران شاه^(٣) . الذي نزل في قصر أبيه ومن يومئذ أعلن بموت الملك الصالح

(١) انظر د . أحمد شلبي موسوعة التاريخ الاسلامي ج ٢ ص ٢٢ . مكتبة النهضة ط ١٩٩٠ .

(٢) انظر المرجع السابق ج ٢ ص ٢٢٦ .

(٣) توران شاه : هو الملك المعظم توران شاه بن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن السلطان الملك الكامل محمد بن السلطان الملك المعادل أبي بكر بن الامير نجم الدين أيوب . كان أبوه قد ولاه حصن كيفا في الشرق ثم كان يستدعيه فلا يجيبه فلما مات والده استدعته شجرة الدر . انظر : عقد الجمان ج ١ ص ٢٣ .

نجم الدين أيوب ولم يكن أحد قبل هذا اليوم ينطق بموته بل كانت الأمور على حالها والد هليز الصالحى والسوماط ومجى الأمراء إلى الخدمة على ما كان عليه الحال فى أيام حياته وشجرة الدر تدبر الأمور للدولة^(١) مدعية مرض السلطان . ويدل هذا الموقف على قدرة وشجاعة شجرة الدر فى مواجهة الموقف وتسيير الأمور . ولكن سرعان ما قتل الماليك توارن شاء ٤ حيث قيل إنه أساء إلى الماليك وتوعدهم . وصار إذا سكر فى الليل جمع ما بين يديه من شمع . وضرب رؤسها بالسيف حتى تنقطع ويقول هكذا أفعل بالبحرية^(٢) . فقتلوه شر قتلة . ف قيل إنه اشترك فى قتله ثلاثة أشياء السيف والنار والماء . حيث اجتمعت البحرية على قتله بعد نزوله بفراسكرور وهجموا عليه بالسيوف ، فهرب معظم منهم إلى البرج الخشب الذى نصب له بفراسكرور ، فأطلقوا نسي البرج النار ، فخرج معظم من البرج هارباً طالباً البحر ليركب فى جرافته فحاولوا بينه وبينها بالمشاب ، فطرح نفسه بالبحر فأدركوه وأتوا قتله وكانت مدة إقامته فى الملك من حين وصوله إلى الديار المصرية شهرين وأياماً . وعقب قتله نادى كبار رجال الدولة شجرة الدر سلطنة على مصر وتلقبت بعدة ألقاب منها الملكة * عصمت الدين - شجرة الدر * والستر العالى والدة الملك الخليفة ودعى لها على المنابر ملكة المسلمين على أن الأحوال اضطرت على أثر توليها الحكم . فإن الخليفة العباسى نعى على أهل مصر أن تتولى امرأة

(١) انظر المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢٣ - القاهرة ١٩٧٠ .

(٢) انظر المرجع السابق ج ١ ص ٣٦ .

(٣) انظر العيىنى : عقد الجمان ج ١ ص ٢٦ - تحقيق د / محمد محمود

أمين . ط الهيئة المصرية العامة للكتاب .

العرش . ولم يتمكن أمراء المماليك من أن يحصلوا على موافقته على اختيارها بل على العكس رد الخليفة العباسي على طلبهم بقوله " إن كان الرجال قد عدوا عندكم فأعلمونا حتى نسير لكم رجالا . وتدل تلك الأحداث على السولا . الخالص من المماليك لأستاذهم الملك الصالح نجم الدين أيوب حيث إنهم بايعوا السلطان الملك المعظم توران شاه ولكنه قابل الإحسان بالإساءة فكان جزاؤه القتل ولم يطمح المماليك في توليهم السلطنة حيث سلطنوا زوجة أبيه شجرة الدر وقد موا لها السولا والطاعة وأرادوا أن يصفوا على حكمها الشرعية ولكنهم فشلوا بسبب الأحداث التي وقعت من عصيان وتوعد الملك المغيت بالكرك^(١) واستيلائه عليها وعلى الشوبك واستيلاء الملك الناصر صاحب حلب على دمشق ووقوع الاضطراب في مصر مما أدى لا اجتماع البحرية والأتراك وأجمعوا أنهم لا يمكنهم حفظ البلاد وأمر الملك لأمر^(٢) واتفق أمرهم على أن يفوض أمر الملك إلى الملك المعز عز الدين أيوب وكان أيوب عفيفا لا يمنع

(١) الكرك : مدينة ذات قلعة تعرف بكرك الشوبك والشوبك أقدم منها والكرك مدينة حديثة البناء كانت ديرا للربان ثم كسروا فوسعوا بناءه وأوى إليها أناس من النصارى فقامت لهم بها معاش وأوت اليه الفرنج فأدارت أسواره فصارت مدينة مشهورة ثم بنوا حصنا فكانت قلعة فاستولى عليها الفرنجة . وفتحت في زمان السلطان الملك الناصر صلاح الدين أبي المظفر يوسف بن أيوب . انظر " ابن فضل الله العمري " مسالك الأنصار في ممالك الأنصار ص ٢١٢ تحقيق دورد ويتا كرافولسكسي ٧٠٠-٧٤٩ هـ / ١٣٠١-١٣٤٩ م

(٢) الملك المعز هو أول ملوك الترك وهو السلطان الملك المعز عز الدين أيوب التركماني يقال انه في الأصل مملوكا لبیت فخر الدين بن تركماني الذي كان متولى الاعمال الخيرية وارتجع الى بيت الملك الصالح نجم الدين أيوب ولم تنزل تنتقل به الا حوال الى الملكة الديار المصرية " بن أيوب : كنز الدر ج ٨ ص ١٢ .

أحدا حاجة ولا يشرب مسكرا^(١) وكانت سلطنته في أواخر ربيع الآخر عام ٦٤٨ هـ أغسطس ١٢٥٠ م ولكن لم تمض أيام خمسة حتى طالب الماليك الصالحون بأن يكون السلطان من بني أيوب من بين زعمائه الأمير فارس الدين أقطاي والأمير ركن الدين بيبرس المنقذاري والأمير سيف الدين بلقسان الرشيدى . وتحت ضغط الماليك الصالحين اختاروا الملك الأشرف ملكا وكان صغير السن وحدت وقائع بين المعز أيك . والماليك الصالحين انتهت بعزل الأشرف من السلطة واشتغال الملك المعز أيك بالحكم وبذلك زالت الدولة الأيوبية وانتقل الحكم إلى الدولة المملوكية وقد سبق أن تزوج الملك المعز صاحب مصر من شجرة الدر ولكن لم يستمر ذلك الحال كثيرا حيث شاع الخبر أن الملك المعز صاحب مصر سيتزوج بابنة صاحب الموصل فعظم ذلك على زوجته شجرة الدر وعزمت على الفتك به واتفقت مع جماعة من الخدم ووعدتهم بأموال عظيمة فركب المعز للعب الكرة وجاء منهاكا فدخل الحمام ليغتسل فلما صار عريانا رمت الخدم إلى الأرض وخنقوه ليلا ولم يدربه أحد فأصبح الناس من الأمراء والكبراء على عادتهم للخدمة فإذا هو ميت^(٢) . ثم سلطنوا ابنه الملك المنصور على وقتل ماليك المعز شجرة الدر قتلة شنيعة جـسـزا لجريمتها ولم يستقر الملك المنصور على في الحكم طويلا حيث اجتمع الأمراء

(١) انظر بن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ج ٥ ص ٢٦٨ . دار الآفاق الجديدة بيروت .

(٢) الملك الأشرف : مظفر الدين موسى بن الملك المسعود صلاح الدين يوسف الملقب باستر بن عبد الملك الكامل بن العادل بن أيوب عقد الجمان ج ١ ص ٣٥ .

(٣) انظر بن العماد الحنبلي : شذرات الذهب * ج ٥ ص ٢٦٨ بيروت .

واعيان

والكبراء واعيان المعسكر على أنه لا غنى للمسلمين عن ملك يقوم بحماية رايسته
الدين خاصة عندما يتقنوا من قصد التتار الديار المصرية وأجمعوا على إقامة
الأمير سيف الدين قطز المغربي^(١) سلطاناً وهزم قطز التتار في (عين جالوت) ولكنه
قتل أثناء عودته وانتقل الحكم إلى الملك الظاهر بيبرس الذي يعتبر المؤسس
الحقيقي لدولة المماليك البحرية . ولقد استمرت الدولة المملوكية في حكم مصر
فترة تقرب من ثلاثة قرون بداية من سقوط الدولة الأيوبية إلى قدوم العثمانيين
إلى مصر ١٥١٧ م وفي الحقيقة أن قيام دولة المماليك قد استغرق ما يزيد على
عشرة أعوام كانت المحصلة النهائية لمجموعة من الأحداث اتخذ قسم منها شكل

(١) قطز المغربي هو سيف الدين قطز عبد الله التركي أخمص المماليك الملك
المعز أيك التركماني أحد مماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب المعين
عقد الجمان ج ١ ص ٢٥٥ وقال العدل أمين محمد بن ابراهيم
ابن أبي بكر بن عبد العزيز أبو الفوارس الجذري حكى لى والدى عن
بد . شأن الملك المظفر قطز رحمه الله كان في رق العريم ، أو قال
ابن الزعيم بد مشق القصاعين والصحيح أنه بن الزعيم اتفق أن استأذنه
غضب عليه بشئ . أحدث منه فلطمه على وجهه ولعنه وأبيه وجده . ثم
انه جلس يبكي ويشحب وزاد في بكاءه عن حد القياس فقال له الحجاج
على الفراش وكان الحجاج على في بيت بن الزعيم هذا البكاء كله من
ضربة أو ضربتين فقال والله ما أبكي للضرب ولكن لسب أبي وجدى ؟ وهم
والله خير من أبيه وجده فقال له الفراسن ومن أبوك وجدك ؟ فما كان
الا كافرين فقال له لا والله بل أنا مسلم بن مسلم الى عشرة جدود وأنا
محمود بن محدود بن أخت خوازم شاه السلجوكى ولا بد أن أملك مصر
وأكثر التتار انظر كنز الدرر ج ٨ ص ٤٠ : ٤٩ - القاهرة ١٩٨٠ .

صراع بين الرجال في الدولة الأيوبية من ناحية ورجال دولة المماليك من ناحية ثانية واتخذ قسم ثانى منها فى شكل صراع بين الجبهة الإسلامية مثلثة فتنس المماليك والمغول والغزاة^(١) . وقد عرفت مصر فى حكم دولة المماليك عصرين أو دولتين الأولى دولة المماليك البحرية (٦٤٨ - ٧٨٣ هـ) (١٢٥٠ - ١٣٨٢ م) وترجع تسميتهم نسبة إلى غالبية سلاطينها من المماليك الذين اشتراهم الأيوبيون وأسكنوهم فى جزيرة الروضة بالمنيل أو ما كان يسمى البحر أيضا . حيث قضى هؤلاء المماليك على دولة الأيوبيين وتولوا الحكم بعد هم فنسبوا إلى هذه البحرية التى كان الملك الصالح الأيوبي قد بناها^(٢) .

الثانية دولة المماليك البرجية (٧٨٤ / ٩٢٣ هـ) (١٣٨٢ / ١٥١٧ م) وتسميتهم نسبة لأن غالبية سلاطينهم من المماليك الذين كانوا يسكنون بسروج القلعة على جبل المقطم حيث يعتبر السلطان قلاوون البحرى أول من استكسثر هذا النوع من المماليك^(٣)

خامسا : العوامل التى ساعدت على نشوء دولة المماليك :

فى الواقع أن هناك عوامل داخلية وخارجية ساعدت على نشوء وصمود الدولة المملوكية فى مواجهة الأخطار فكانت تلك العوامل بمثابة التربة الصالحة

(١) انظر د / حامد غنيم أبو سعيد * الجبهة الإسلامية فى عصر الحروب الصليبية ج ٣ ص ٦٠ .

(٢) انظر د / سهام مصطفى أبو زيد (الحسبة فى مصر الإسلامية من الفتح الغربى إلى نهاية العصر المملوكى) ص ٩٠ الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٣) انظر د / عبد المنعم ماجد (طومان باى آخر سلاطين المماليك) ص ٢٧ مكتبة الانجلو المصرية ط ١٩٧٨ .

لوجود ذلك العنصر المملوكي . فقامت الدولة المملوكية وسنذكر بشيء مسن
الإيجاز بعض العوامل الداخلية والخارجية التي ساعدت على نشوء الدولة
المملوكية .

أولاً : العوامل الداخلية :

- ١ - انقسام الدولة الأيوبية على نفسها عقب وفاة صلاح الدين الأيوبي ٥٨٩ هـ
١١٩٣ م ولإحلال الصراعات محل الوثام والوحدة^(١) . وكانت الفرصة المواتية
أمام الدولة الأيوبية كي تجدد شبابها هي الفترة التي أعقبت الانتصار على
الحملة الصليبية السابعة ، غير أن توارن شاء لم يكن بالرجل الذي تساعده
مواهبه على انتشار الدولة من محنتها ووضعها على الطريق الصحيح ، وكانت
تصرفات هذا السلطان في الأيام القليلة التي أعقبت الانتصار على الصليبيين
تؤكد أن النظام الأيوبي في مصر قد قرر أن يعيش محنة السقوط والا خفاق^(٢) .
- ٢ - كفاءة وقدرة المماليك الحربية أكسبت المماليك احتراماً وتقديراً بالغاً
من سلاطين الدولة الأيوبية فلا يخفى علينا ما كان يكنه الملك الصالح
نجم الدين أيوب للمماليك من التقدير والاحترام حتى وصلوا إلى مناصب
كبيرة في الدولة الأيوبية : أمثال فارس الدين أقطاي ، بيبرس وقطز

وهناك عوامل داخلية كثيرة

- (١) للمزيد عن الانقسامات التي دارت مؤخراً في البيت الأيوبي انظر د /
محمد كمال عز الدين (التاريخ والمنهج التاريخي) لابن حجر
العسقلاني ص ٤٩ . وانظر د / أحمد شلبي موسوعة التاريخ الاسلامي
ج ٥ ص ٢٠٢ - مكتبة النهضة المصرية ١٩٩٠ .
- (٢) انظر د / حامد غنيم أبو سعيد (الجبهة الاسلامية في عصر الحروب
الصليبية ج ٢ ص ٢٧٤ - دار الثقافة للطباعة والنشر ١٩٨٤ .

ثانيا : العوامل الخارجية :

١ - إن المماليك كانوا بمثابة الدماء الجديدة التي كانت تطلبها حركة الكفاح ضد الصليبيين في هذه المرحلة من كفاحها فقد شاعت الأقدار أن يمسر العالم بمحن كثيرة وابتلاءات عظيمة . وقد جاء العدو وان الصليبي على مصر بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا سنة ٦٤٧ هـ - ١٢٤٩ م فرصة لإبراز أهمية فرسان المماليك في الدفاع عن العالم الإسلامي فقد كان للخطبة التي وضعها بييرس البند قدارى ونفذها فرسان المماليك في شوارع المنصورة^(١) الأثر البالغ في هزيمة جيش الصليبيين واستطاع هؤلاء بمساعدة المتطوعين المصريين القضاء تماما على الجيش الصليبي وأسرى لويس نفسه^(٢) وكان انتصار المصريين على الصليبيين بين المنصورة وفراسكور بمثابة صرخة الميلاد لدولة سلاطين المماليك وإن كان بعض المؤرخين يعتبر أن الدولة الوليدة مرت بفترة تجربة استمرت عشر سنوات بين معركة المنصورة ٦٤٧ هـ / ١٢٥٠ م وبين تولية سيف الدين قطز سلطانا على مصر وهو دور القوى الضاربة المدافعة عن العالم الإسلامي فللمرة الأولى في تاريخ المسلمين يجدون أنفسهم بلا خلافة بعد مقتل المعتصم بالله

(١) عن تفاصيل المعركة انظر / محمد مصطفى زيادة حملة لويس التاسع على

مصر وهزيمته في المنصورة ص ١٤٥ : ٢٠١ القاهرة ١٩٦١ .

(٢) انظر د / قاسم عبده (دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي عصر سلاطين

المماليك ص ٨ - دار المعارف ١٩٨٣ .

العباسي في بغداد ٦٥٦ هـ وانجلى هذا الحدث الذي زلزل أركان العالم الإسلامي^(١) وكان على دولة المماليك الناشئة أن تتصدى للخطر التتاري وهو ما قامت به دولة المماليك على أيدي سلطانها سيف الدين قطز الذي أذاق التتار مرارة الهزيمة بعين جالوت ومن بعده واصل الملك الظاهر بيبرس وسلاطين الدولة المملوكية الجهاد ضد الصليبيين والتتار مما أكسب المماليك صفة شرعية في الحكم هذا إلى جانب إحياء الخلافة الإسلامية في عهد الملك الظاهر بيبرس البندقداري .

(١) انظر د / قاسم عبده (دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي عصر

سلاطين المماليك ص ٨ - دار المعارف ط ١٩٨٣ .

الفصل الثانى
الحالة السياسية والحياة الاجتماعية
فى العصر المملوكى

الفصل الثاني

الحالة السياسية والحياة الاجتماعية في العصر المملوكي البحري
 أولاً : الحالة السياسية في العصر المملوكي :
 للحديث عن الحالة السياسية في العصر المملوكي لا بد أن نشير إلى أن
 الحالة السياسية في ذلك العصر لم تكن على وتيرة واحدة .

حالة التفكك والتسحق :

انصفت الحقبة السياسية الأولى بالتفكك والصراع على السلطة . ففي نهاية
 عصر الدولة الأيوبية وبالتحديد بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي ٥٨٩هـ / ١١٩٣م
 سادت الفتن وانقسم المسلمون في كل بقاع الأرض إلى دويلات وحوزات مملوك
 ينظر بعضهم إلى بعض نظرة العدو والمفترس لا نظرة المؤمنين العوالي ونظـر
 الملوك إلى رعاياهم نظرة المتسلطين المسيطرين يسومونهم الخسف والهوان^(١) .
 وبينما المسلمون على ذلك الحال الذي يرضى له وذلك الوضع الذي هم أقرب
 فيه عن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ثوبان مولى رسول الله قال :
 قال صلى الله عليه وسلم * يوشك أن تتداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تتداعى
 الأكلة على قصعتها . فقال قائل أمن قلة نحن يومئذ ؟ قال أنتم يومئذ كثير ،
 ولكن تكونون غشاً كثفاً السيل ولينزعن الله المهابة من صدوركم ويجعل
 في قلوبكم الوهن . قال قائل يا رسول الله وما الوهن ؟ قال حب الدنيا
 وكراهية الموت^(٢) . ويصف ابن الأثير الأخطار التي حلت بالعالم الإسلامي في
 ذلك الوقت فيقول لقد ابتلى الإسلام والمسلمون في هذه الفترة بمصائب لم يبتل
 بها أحد من الأمم . منها هولا التتار فمنهم من أقبلوا من الشرق ففعلوا

(١) انظر / أبو زهرة * الامام ابن تيمية حياته وآراءه الفقهية ص ١٠٦ دار

الفكر العربي
 (٢) مستند الامام / أحمد بن حنبل ج ٥ ص ٢٧٨ .

الأفعال التي يستعظمها كل من سمع بها . ومنها خروج الفرنجة لعنهم الله وقصدهم ديار مصر أو غيرها على أن يملكوها لولا لطف الله تعالى ونصره إياها ومنها أن السيف بينهم مسلول والفتنة قائمة ^(١) . ويتضح لنا من ذلك الوصف أن المسلمين لم تواجههم أخطار خارجية من العدو والصليبي الماكر . والتتارى الغاشم فقط ولنا واجبتهم أخطار داخلية وهي الفتنة والصراع على السلطة وتد لنا تلك الواقعة على ما كان عليه حال حكام المسلمين من تنافس على السلطة فقد عثم الملك المظفر قطز بمسير نجدة التتار إلى الناصر . فخشى الملك المظفر قطز من استفحال الأمر فبعث رسله إلى الملك الناصر صاحب الشام يتودد فيها إليه ويقسم بالآمان أنه لا ينازعه في الملك ولا يقاومه وأضاف أن المظفر ما هو إلا نائب للملك الناصر في مصر وأنه هـتى قدم الناصر إلى قطز أقعده قطز على كرسى السلطنة وكتب له في رسالته :

* إن اخترتني حدثك وابن أخدقني قد متومن معي من المعسكر نجدة لك على القادم عليك فإن كنت لا تأمن حضوري سيرت لك المعسكر في صحبة من تختار ^(٢) .

فلولا من الله على المسلمين بقائد عظيم هو الملك المظفر قطز لكانت تلك طامة كبرى حيث أن الملك الناصر استنجد بالتتار وأبدى التعاون معهم ضد سلطان مصر من أجل السلطنة ولكن القائد المسلم سيف الدين قطز استطاع أن يوحد صفوف المسلمين في مواجهة الخطر الزاحف .

(١) انظر ابن الأثير "الكامل في التاريخ" ج ٩ ص ٣٣٠ - دار الفكر بيروت .

(٢) انظر د / فايد حماد عاشور : العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الأولى ص ٣٧ - دار المعارف .

وفي أوائل ٦٥٩ هـ تعرضت الجبهة الإسلامية إلى تمزق في ثلاث اتجاهات
إتجاه في القاهرة، وآخر في دمشق، وثالث في حلب . وهذا انقسام خطير لم
قد ر الله أن يستمر لقضاء الجبهة الإسلامية بين عدوئها المتربصين لها " المغول
والصليبيين " وزاد من خطورة الأمر سقوط الخلافة العباسية .

سقوط الخلافة العباسية :

لأول مرة في تاريخ المسلمين يجدون أنفسهم بدون خلافة بعد مقتل
ال خليفة المستعصم بالله العباسي في بغداد سنة ٦٥٦ هـ وسقوط بغداد في
أيدي التتار مما أشاع الرعب في قلوب المسلمين في كل أنحاء الممالك الإسلامية .

ثانيا : الحالة السياسية بعد عودة الخلافة العباسية :

تغيرت الحالة السياسية في العصر المملوكي بعد إحياء الخلافة العباسية
في السابع عشر من ربيع الآخر ٦٦٦ هـ على أيدي بيبرس على أنه لم يكن أول من
فكر في إحياء الخلافة بل سبقه إلى التفكير في ذلك الملك الناصر يوسف صاحب
دمشق الذي ما كاد يعلم من الأمير عبيس بن مهنا أن أميراً عباسياً قدّم إلى
دمشق وحتى أرسل يستدعيه إليه غير أنه فوجئ بقدوم التتار فعاد الأمير
ثانية إلى عبيس بن مهنا وعند ما قدم الملك المظفر قطز إلى دمشق على

(١) هذا الأمير هو أبو العباس أحمد بن أبي علي الحسن القبي بن علي
ابن أبي بكر بن الخليفة المسترشد بالله بن المستظهر بالله وكان قد
اختفى أثناء هجوم التتار على بغداد ثم تمكن من الفرار (١) قام عند
حسين بن فلاح أمير بني خفاجة ثم ذهب إلى دمشق وقام عند الأمير
عبيس بن مهنا - (السيوطي - تاريخ الخلفاء ص ٣١٧ : ٣١٨ .

أثر انتصاره على التتار في موقعة (عين جالوت) . أخبره الأمير عيسى بن مهنا
بمقدم ذلك الأمير العباسي . فقال له إذا رجعنا إلى مصر أرسله إلينا لنعينه
إن شاء الله ونستفيد من ذلك أن قطز كان يرمى إلى تولية هذا الأمير خليفته
للمسلمين غير أنه لم يعمر طويلا حتى ينفذ هذه الفكرة (١).

ولقد استفاد الإسلام بلا شك من إقامة خليفة يكون عنوانا للوحدة الإسلامية
ورمزاً لجماعتها الموحدة . وإن كانت الخلافة قد عادت شكلاً لا قوة لها . فقد
حاول الخليفة المستنصر بالله أن يعيد لها معناها وإن شكلياً فإن بقاء الشكل
قد يكون إيزاناً يعود بها الحقيقية أو بوجود عودتها وقتاً من الأوقات فكانت
الخلافة هبة في قلوب الأعداء وشهدت تلك الفترة استقراراً نسبياً .

ثالث : الحياة الاجتماعية في العصر المملوكي :

عاشت مصر عيشة ناعمة أيام الفاطميين وكانت الحياة الاجتماعية أقرب إلى
الترف والبذخ . منها إلى حياة الجهاد والكفاح منها أقرب إلى الدعاء
والمدنية منها إلى الحرب وحياة الجندية فلو جا الأيوبيون وقضوا عهدهم
كله في الحروب الصليبية من أوله إلى آخره ، إن أن دولة الأيوبيين ظهرت
على مسرح التاريخ وليدة الشعور بالخطر الصليبي . وكانت حياتهم عسكرية
صرفة . وتتغير الحياة في عهد المماليك فلا هي عسكرية صرفة ولا مدنية
خالصة . فبينما نرى أن هؤلاء المماليك يصدون غارات الصليبيين والمغول ،

(١) انظر / د محمد جمال الدين سرور " دولة الظاهر بيبرس في مصر

ويقومون بفتوحات عديدة نراهم تنعموا بمظاهر الأبهة . واختلف العلماء
 فى تصنيف الفئات التى يتكون منها المجتمع زمن الممالك فمنهم من قسم الفئات
 إلى اجتماعية الأساسية فى العصر المملوكى إلى خمس فئات . أولى هذه الفئات
 الممالك الذين كانوا يقفون على رأس السلم الاجتماعى وسعتهم المصادر أرباب
 السيوف ، ثم فئة كبار موظفى الدولة من غير العسكريين وسعتهم المصادر أرباب
 الأقلام ويشكل العلماء الفئة الثالثة الاجتماعية فى العصر المملوكى الأول وتأتى
 التجارة فى المرتبة الرابعة ، ثم سائر الناس وهم العامة .

أما ابن خلدون فيقسم المجتمع إلى قسمين؛ سلطان ورعية ^(١) ويستعرض للحديث

عن أهم الفئات الاجتماعية :-

١ - السلطان :

حتى تمت السلطة لأحد الأمراء وصار سلطانا على البلاد أصبح بيده الأمر
 والنهى والحل وصار صدر ^{السلطات} السلطان وولى الأمر الشرعى وهو الذى يعين
 ويعزل ويرقى ويفرق الإقطاع ويقرر الحرب ويفرض الضرائب وينفق المال على
 مرافق البلاد ويشترى الممالك للدولة وينفق عليهم ويربهم ويعد لهم للحراسة
 والقتال وإلى غير ذلك من المهام فهو محور الدولة وعليه مدارها ^(٢) وتشبه سلطات
 السلطان فى الدولة المملوكية سلطات الخليفة فى العصور السابقة . وصفوه
 القول كله أن السلطان هو كل شئ فى تنظيم دولة الممالك ^(٣) .

(١) انظر / مقدمة ابن خلدون ص ١٦٨ - دار الفكر .

(٢) انظر د / عبد المنعم ماجد " دولة سلاطين الممالك ورسومهم ودراسته
 شاملة للنظم السياسية . مكتبة الانجلو المصرية .

(٣) انظر د / محمود رزق سليم : عصر سلاطين الممالك ج ٤ ص ٢٨٩

حفل توليته : -----

بعد استقرار الرأي على أن يتولى أمير معين أمر السلطنة يقام له حفل تولية ومبايعة يجتمع فيه الخليفة وقضاة الشرع الأربعة وسائر الأمراء ويكتب تقليد السلطان للسلطنة ويتلى في الحفل على لسان الخليفة العباسي يوليه فيه شئون المسلمين . ويتقدم الخليفة نحو السلطان فيبايعه ويعهد إليه ثم يليه قضاة الشرع فالأمراء ويلبسونه بعد ذلك شعار السلطنة وهو عمامة سوداء لهيا عربية مذهبة وجبة سوداء وسيف شمسين ذو حماثل ويجلسونه في الرست^(١) وكانت القلعة محل إقامة السلطان وبها دواوينه ، وقصره وما يتبعه من أبنية وإدارات ومن أهم الدواوين . ديوان الأحياس وتشبه وزارة الأوقاف وديوان النزر ويشبه وزارة المالية . وديوان الخاص وديوان الإنشاء ، الغلال وديوان المرتجعات (التركات)^(٢)

حفل الإستقبال : -----

عرف سلاطين المماليك الأعراف الدبلوماسية السائدة في عصرنا من إقامة مراسم الإستقبال في المناسبات عند حفائهم بضيف كبير ، وكانت تراعى فيها تقاليد وأوضاع مقررة ويرسل السلطان عادة إلى القادم من يلقاه في طريقه ويهدي له منزلاً مناسباً لإقامته ويعين له من يقوم بحراسته وخدمته .

- (١) الرست : وهو العرش في أيامنا هذه ورست السلطنة هو كرسي العرش والرست أيضاً بمعنى الديوان (بيبرس المذهور والتحفة المملوكية) ص ٢٧ (الدار المصرية اللبنانية ط ١ القاهرة .
- (٢) انظر شحاته عيسى ابراهيم * القاهرة تاريخها ونشأتها * ص ١٥٧ - دار الهلال .

الجلوس إلى القضا :

وأراد سلاطين المالِك أن يتشبهوا بالسلف في تفقد أحوال الرعيـــــــــــــــــة
والنظر في المظالم فجلسوا في مجلس القضا للفصل في الشكايات والخصومات
واصطحبوا معهم قضاة الشرع . وكان جلوس سلاطين المالِك في مجلس القضا
من العادات الحميدة ولم تطرد هذه العادة فيها فمنهم من هجرها جملة
ومنهم من لم يواظب على هذه العادة باستمرار . ومن الذين جلسوا للقضا
نجد الظاهر بيبرس والأشرف خليل بن قلاوون ، والناصر بن قلاوون وتقـــــــــــــــــدم
الشكاوى والمظالم على اختلاف أنواعها إلى السلطان حين ذلك ~~للمستشير~~
فيها قضاة الشرع فيحكم بما يراه ولا يخرج عن رأيهم ^(١)

٢ - الوزراء :

الوزارة كلمة فارسية الأصل فهي ليست من مستحدثات الإسلام ^(٢) فقد ورد
ذكرها في القرآن الكريم على لسان موسى إذ يقول * وَأَجْعَلْ لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي
هَارُونَ أَخِي أَشَدُّنَّ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ^(٣) .

(١) انظر المرجع السابق ج ٤ ص ٢٩١ : ٢٩٣

(٢) انظر د / سلمان محمد الطماوى " نظم الحكم والادارة " ص ٤٦٧ .

(٣) سورة طه آية ٢٩ : ٣١ .

واتخذ بيبرس ^(١) له . كان يستشير في أمور الدولة كما كان وسيطاً بينه وبين الرعية وكان عليه تنفيذ أوامر السلطان . وإعطاء النصح والإرشاد له إذا ما استأنس برأيه في أمر من أمور الدولة غير أنه لم يكن يتمتع بكامل سلطنته لقيام النائب مقام السلطان أثناء غيابه ^(٢) . وظلت الوزارة قائمة في ذلك العصر حتى ولي الناصر محمد بن قلاوون سلطنته ^(٣) مصر فلم يتخذ له وزيراً أعظم ^(٤) على نواب له في إدارة شئون البلاد وكانت رتبته تلي رتبة الوزراء يعاونه في عمله كثير من الموظفين يعرفون بالمستوفيين ولهؤلاء رئيس يسمى (مشوف الصحن) وكانت مهمته اعداد المراسم الخاصة بتنظيم شئون الدولة ^(٥) .

١ - الوزير : هو المتحدث الملك في أمر مملكته واختلف اشتقاقه فقيل مشتق والوزير بفتح الواو والوزير وهو الملجأ . ومنها قوله تعالى " كلا لا وزر " سمي بذلك لأن الرعية يلجأون اليه في حوائجهم وقيل مشتق من الأوزار وهي الأمتعة ، ومنها قوله تعالى " ولكن حملنا أوزارنا من زينة القوم " سمي بذلك لأنه متقلد بخزائن الملك وأمتعته وقيل مشتق من الوزير بكسر الواو واسكان الزين وهو الثقل ومنه قوله تعالى " حتى تضع الحرب أوزارها " وسمي بذلك لأنه يتحمل أثقال الملك وقيل مشتق من الأرز وهو الظهر وسمي بذلك لأن الملك يقوى لوزيره لقوة البدن بالظهر (الفلقشندي " صبح الأعشى " ج ٥ ص

٤٤٨ - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧ .

٢ - انظر د . محمد جمال الدين سنور " دولة الظاهر بيبرس " ص ١٢٣ .

٣ - انظر المقرئ " للخفط " ج ٢ ص ٣٣٤ دار الفكر المصرية ١٩٦٠ .

ويدل ذلك على أن سلاطين الماليك لم يتخذوا لهم وزراء يعاونوهم في إدارة شؤون الدولة كما كانت الحال في عهد الدولتين الفاطمية والأيوبيه فأضعفوا أولاً من نفوذهم ثم استبدلوا بعد كبار الموظفين فأصبح كل من ناظر الدولة ^{منصب} مناظر الخاص حتى يقوم بهام الوزارة ولعلمهم عهدوا إلى ذلك خشية أن يزداد نفوذ الوزراء فيعملون على تقوية سلطنتهم وخلصهم من عروشهم كما كانت الحال في أواخر الدولتين العباسية والفاطمية .

٣ - الأمراء وكبار موظفي الدولة :

الأمراء هم قادة الجند وهم الفئة التالية للسلطان في الحكم والمنفذة لأمر الدولة ويغلب أن يكون الأمير ملوكي الأصل مربي في طباق القلعة تربية عسكرية فصار جندياً ثم رفعت به مهارته وجدده إلى صفوف الإمارة ويتولى الأمراء أهم مناصب الدولة ولا سيما العسكرية منها وهم في الغالب أربع طبقات :-

١ - أمراء المائة :

المقدمون وتلك أرفع العراتب ويختار من هذا الصف كبار الموظفين مثل نائب السلطنة الأتابكي^(١) : ~~و~~ أول من أسير الترك ~~(الماليك)~~ هذه السنة الملك المعز حيث رتب ملوكه الأمير سيف الدين قطز المعزى في نيابته سلطانه وكانت سنة حسنة^(٢) وكانت نيابة السلطنة كما يستدل من منطوقها

(١) الأتابك : هو القائد العام لجيوش الدولة وأتابك لفظ تركي مركب من كلمة "أطا" بمعنى أب وكلمة بك بمعنى السيد أو الأمير فيكون الأتابك هو السيد الأب أو الأمير الأب أي أب الأمراء .

(٢) انظر بيبرس المنصوري " التحفة المملوكية " ص ٣٣ - تحقيق د / عبد الحميد صالح حمدان - القاهرة ١٩٨٢ .

أكبر الوظائف في الدولة المملوكية ويقوم بتوليها مقام السلطنة
في غيبته^(١).

٢ - أمراء الأربعين :

وهم أقل مرتبة .

٣ - أمراء العشرة :

٤ - أمراء الخمسة :

وأهم وظائفهم نائب الإقليم أو قلعة دمشق والإسكندرية وحلب أو أمير
مجلس ويشرف على الأطباء ومن آل إليهم وأمير سلاح وهو رئيس رجال
السلاح من ممالك السلطان ويوكل إليه الإشراف على السلاح وإعداد
وأمير أخضر وينظر في إصلاحات السلطنة وما تحتاج إليه من طعام
وشراب وخدم وغير ذلك (والدوائر) يبلغ رسائل السلطان وتقدم إليه
المظالم والبريد مع كاتب السر والجاشنكير^(٢) يتولى الإشراف على

(١) الخطيب الجوهري "نزهة النفوس والابدان في تواريخ الزمان" هامش
ص ٤٧ .

(٢) الجاشنكير : هو الذي يتصدى لزوم المأكول والمشروب قبل السلطان
أو الأمير خوفا من أن يفس فيه سم أو نحوه وهو مركب من لفظة
فارسية : أحدهما جاشنا بجيم في أوله قريبة من الشين معناه
الدوق ولذلك يقولون في الذي يذوق الطعام أو الشراب الشيشي
والثاني كير وهو بمعنى التعاطر لذلك فيكون المعنى الذي يروق .
انظر القلقشندي "صبح الأعشى" ج ٥ ص ٤٦ .

الخزائن السلطانية والأطعمة والموائد ووالي القاهرة وهو من الوظائف الهامة التي ظهرت في هذا العصر وهي تقابل ما يعرف بالعصر الإسلامي الأول بالشرطة ومهمة صاحبها حفظ النظام والقبض على الجناة والمفسدين وما إلى ذلك من الأعمال الإدارية التي تكفل سلامة الجمهور^(١).

الجيش :

اهتم أرباب السيوف اهتماماً بالغاً بالجيش ويعد بيبرس أول من نظم جيوش المماليك تنظيمًا تاماً ولا عجب . فقد كان قائداً محنكاً ظهرت كفاءته في موقعة المنصورة التي دارت بينه وبين الصليبيين وكان جيش المماليك يتألف من ثلاث طوائف :-

جنود نظامية تنفق عليها الدولة ومماليك السلطان وهم عصب الجيش وقوته العاملة^(٢) وكانوا يجلبون من الخارج رقيقاً ويبرسون تربية عسكرية في أبراج القلعة . واهتم السلاطين بهم حتى أصبحوا ذا ثروة كبيرة ونفوذ عظيم . أما الطائفة الثالثة فهم مماليك الأمراء وكانوا يحرسونهم وقد حافظ المماليك على صيغتهم الحربية حتى بعد ضغط نفوذهم وقد كان جيش المماليك من أقوى الجيوش عدداً وقوة . بحيث تغلب على أكبر جيوش الأرض كالصليبيين والمغول .

(١) انظر محمد جمال الدين سرور * دولة الظاهر بيبرس ص ١٣٦ دار الفكر

المعري ١٩٦٠ .

(٢) انظر / محمود رزق سليم * عصر سلاطين المماليك * ج ٤ ص ٣٠٢ طبعة

النهضة ١٩٨٢ .

٤ - العلماء :

عرفت بطبقة المعلمين أو أهل العمارة وكانت تشمل أرباب الوظائف الديوانية والفقهاء والعلماء والأدباء والكتاب وامتازت هذه الفئة بميزات معينة فكان بعض السلاطين يقومون للعلماء ويجلسونهم إلى جوارهم إلى جانب إغراق المنح والمرتبات الشهرية على أرباب الوظائف المعتمدين . واعتز المعتمدون بمكانتهم في عصر سلاطين المماليك فلجأوا أحيانا إلى معارضة السلاطين في الحق وكان لرأيهم قوة حقيقية يخضع لها السلطان .

٥ - أهل الذمة :

حرص السلاطين والأمراء على التزامهم العدالة تجاه غير المسلمين عملا بتعاليم الدين الإسلامي وفي الحقيقة أن أبناء الأقليات الدينية سواء من اليهود أو المسيحيين قد مارسوا كل المهنة والحرف التي مارسها المسلمون ومن ناحية أخرى فإن الوثائق تشير بوضوح إلى أنَّ اليهود والنصارى قد تملكوا العقارات في شتى أنحاء البلاد إنا عن طريق البيع والشراء وإثنا عن طريق الوراثة . كما تدل الوثائق على أنَّ اليهود والنصارى كانوا يتعاملون مع المسلمين في عمليات البيع والشراء في حرية تامة في ظل القرائن الحاكمة آنذاك^(١) . ورغم ذلك اشتهر أهل الذمة في ذلك العصر بميولهم وتواطئهم مع التتار ضد المسلمين ما جعل الملك الظاهر بيبرس والذي اشتهر بالعدل والأخلاق الحميدة أن يعاملهم

١ - انظر د . / علي إبراهيم حسن " تاريخ المماليك البحرية " ص ٩٤٩ - مكتبة النهضة ١٩٨٠ .

كانوا

معاملة تنطوي على العطف والرعاية بسبب ما كان يقومون به من المناوشات والفتن فقد حدث أن كثر الحريق بالقاهرة أثناء اشتغال ببيرس بفتح أرسوف سننسية ٦٦٣ هـ وأُشيع أن النصارى هم الذين أشعلوا هذه النيران فلما عاد ببيرس إلى مصر أنكر عليهم هذه الأمور التي تفسخ عهدهم ثم أمر بإحراقهم فشنع فيهم الأمير حارس الدين أقطاي أتاكك العساكر على أن يلتزموا بدفع قيمة ما أحرق وأن يقدموا لبيت المال خمسين ألف دينار في كل عام فأُضلق صراحهم وتولى بطريقهم دفع الأموال المطلوبة والتعهد بالآل يعودوا إلى فعل شيء من المنكرات والآل يخرجوا عما هو مقدر^(١) لأهل الذمة وكان الناصر أكثر عطفنا على النصارى من سبقه من سلاطين الممالك حتى أنه أمر بإعادة كل من طرد منهم إلى وظيفته ومنع عنهم الأذى فتمتعوا في عهده بالهدوء والطمأنينة وراحة البال اللهم إلا إذا استثنينا بعض حوادث عارضة كانت تؤدي إلى تغيير السلطان والعام ما جعل الملك الناصر محمد بن قلاوون يعترض على النصارى أن تميز عمامتهم باللون الأزرق واليهود بالعمائم الصغيرة تميزت كل ملة بعلامة معينة وقد كان مرسوم الملك الناصر بتمييز عمامة أهل الذمة له ما يبرره في ذلك الوقت فقد حدث أن بذل أهل الذمة مالا لتكون عمامتهم لون عمام المسلمين . فعرض ذلك الأمر على مجلس العلماء فسكت أهل المجلس وقام الشيخ ابن تيمية وتكلم كلاماً عظيماً^(٢) ورفض أن تكون عمامة أهل الذمة بلسون عمام المسلمين وذلك يجعلنا نتساءل لماذا شدد ابن تيمية في أن يكون

(١) انظر / د . جمال الدين سرور * دولة الظاهر ببيرس * ص ١٥٣ - دار

الفكر العربي ١٩٦٠ .

(٢) انظر السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٢٩ مطبعة الموسوعات .

لأهل الذمة عمام مسيكة على غير لون عمام المسلمين مع أنه المسلم
الصادق الذي يعرف أن الرسول صلى الله عليه وسلم أوجب الفرق بهم كما أن
ابن تيمية لما استنفذ الأسرى من التار لم يفرق بين أسرى الذميين ؟ ولعل
ما حمل ابن تيمية على التشدد للتمييز باللباس هو ما كان يخشاه من عيون النصارى
الباقيين من الحملة الصليبية ، وأن يكون بعض الذميين عيوناً لهم . فشدد
في أن يتميزوا تمييزاً مبيناً ، لكي لا يبت من يميلوا إلى الصليبيين ^{سموهم} في
الجماعة الإسلامية وخلاصة القول أن الموقف الرسمي لسلطين الماليك تجاه
رعاياهم لغير المسلمين من خلال الوثائق الكثيرة التي خلفها لنا ذلك العصر ^(١)
فقد صدرت المراسيم من السلطين وكبار الأمراء طوال عصر الماليك التي تحفظ
لأهل الذمة حقوقهم ومساكنهم .

٧ - المصريون :

كان الماليك يعيشون عيشة الترف بينما المصريون على العكس من ذلك
لا عمل لهم إلا زراعة الأرض ودفع الضرائب وكانوا يقومون فوق ذلك بصنع الملابس
الملوكية الفاخرة وبناء عمارتهم ، غير أنهم على الرغم من ذلك لم يحرموا من
بعض المناصب الحكومية فكان يسند إليهم الوظائف الدينية والقضائية ^(٢) وقد تأرجح
وضع المصريين بين اليسر والرخاء أحياناً وبين الفقر أحياناً أخرى .

(١) انظر / د . محمد محمد أبو زهرة (ابن تيمية " حياته وأمرائه الفقهاء "

ص ٦٣ دار الفكر العربي .

(٢) للاطلاع على تلك الوثائق راجع قاسم عبد " أهل الذمة في مصر " ص ٤٤ .

(٣) انظر د . محمد جمال الدين سرور " دولة الظاهر بيبرس " ص ١٠٣ -

دار الفكر العربي ١٩٦٠ .

٨ - الوائدية :

كذلك كان بالقاهرة جالية من التتار قدموا إلى مصر في أوائل عهد الملك الظاهر بيبرس واتخذوا الإسلام ديناً لهم وأقاموا في دور بنيت لهم فسمى أراضي اللوق^(١) . وكانوا موضع عناية السلطان وكان من أثر هذه المعاملة الحسنة التي عامل بها بيبرس هؤلاء التتار أن أكثر عدد الوافدين منهم وتزايدت بذلك المعائر في اللوق والجهات التي أحوله . وهكذا كان لكل فئة أو طبقة اجتماعية دور على مسرح الأحداث في العصر المملوكي ،

(١) اللوق : كانت تطلق في عهدهم على الجهات التي تعرف اليوم بباب اللوق (المرجع السابق) ص ١٥٣ .

الفصل الثالث

الحركة العلمية في العصر المملوكي

٢٠٠٠ الفصل الثالث

* الحركة العلمية في العصر المملوكي *

قامت في عهد المماليك حركة علمية لا بأس بها فكان ذلك العصر زاهياً
بالعلم كثرت فيه العلوم والمدون كثرة سهلت الطلب والتحصيل ولا حطاطة
فقد كانت العلوم كثيرة جداً وتحصيلها عظيم وعكوف الناس عليها كان كثيراً.
وفي هذه الفترة من الزمن - أي بعد سقوط بغداد كانت مصر محكومة لدولتي
المماليك البحرية والبرجية ويحدثنا التاريخ عما كان عليه هؤلاء السلاطين من
حب للعلم وتقدير للعلماء ومن أجل ذلك شيدوا الجامعات والمدارس الحديثة
واستقدموا في هذه الفترة العلماء من الأقطار البعيدة وصرفوا الأموال
الظائلة على تلك المؤسسات الدينية والعلمية وهاهي آثارهم الخالدة ماثلة
البنيان ، تحدث عما كان عليه القوم من رعاية بعلوم الشريعة والسنة . ولم
يقف الأمر عند حد المعاونة بالمال أو السلطان ، بل لقد جلس السلاطين
في حلبة الدروس مع المتعلمين وتلذذوا على أيدي العلماء وأئمة الحديث
ولقد صارت مصر قبلة المسلمين في ذلك الوقت وكان طبعها أن ينتقل مركز
الثقافة الإسلامية من بغداد إلى القاهرة ، التي لم ترتد إليها جحافل المغول

(١) انظر د. / محمد دياب "محاضرات في تاريخ الدعوة الاسلامية"
ص ١٦ ، اسبوط .

(٢) انظر: محمد بن محمد أبو زهره، الحديث والمحدثون، ص ٤٣٦، دار الفكر العربي.

(١) وذلك بعد نقل الخلافة إلى مصر في عصر الظاهر بيبرس ٦٥٨ هـ /
١٢٦٥ م ولقد كان للمالك نظام متكامل للتعليم فقد كانت الدراسة تمر
بمراحل متعددة أولها التعليم في المكاتب وثانيها التعليم في المدارس

وقد تتطلب كل نوع من التعليم أنواعا مختلفة من المؤسسات التعليمية .
أولا : التعليم في المكاتب : في الإسلام لم تكن أبنية المكاتب
 حارة بسببى المهدى عبد الحكيم الذى عرف

تدور منهاج التعليم في المكاتب حول القراءة والكتابة وتعليم القرآن
والحديث وآداب الدين فضلا عن مبادئ الحساب وقواعد اللغة وبعض
الشعر .

تعليم الأطفال

ويبدأ الأطفال بالكتابة في الألواح ثم ينتقلون بعد ذلك إلى الكتابة
بالمداد وكانت الدراسة بالمكاتب العامة قاصرة على الأيتام فكان إذا بلغ
الطفل الحلم زالت عنه صفة اليتيم وصرف من المكتب ليحل محله مستحق آخر
وقد عرفت مصر في تلك الفترة نوعين من المكاتب مكاتب خاصة بأجر ومكاتب عامة
تقتصر على الأيتام والفقراء وقد عرف المالكي النظم التربوية في التعليم واهتموا
بها اهتماما عظيما فأوصى المؤدب (٢) بأن يحسن معاملة الأطفال ولا يقسو

(١) انظر شحاتة ابراهيم عيسى " القاهرة تاريخها ونشأتها " ص ١٢١ ،
دار الهلال .

(٢) المؤدب : هو الذى يقوم بتعليم الأطفال في المكاتب ويطلق عليه
أحيانا اسم المعلم أو الفقيه (عبد الغنى محمود ، الحركة الفكرية
في مصر ص ١٢٨ ، دار المعارف .

الأدب

عليهم ولا يضربهم ، إلا إذا أساء أحدهم للأدب أو قام بعمل خارج عن قانون الشرع وفي هذه الحالة يجب على المؤدب ألا يضرب صبيا بعصا غليظة تكسر العظم ولا رقيقة تؤلم الجسد بل تكون وسطا واشترط في المؤدب عدة شروط منها " أن يكون صحيح العقيدة " (١) حسن السيرة ، محمود السمعة ، وقد موا للتعليم الحوافز المادية والمعنوية المشجعة للطلاب على طلب العلم فإذا أتم الولد حفظ القرآن في المكتب احتفل به اختفالا عظيما يسمى " بالإصرافه " فتتزين أرض المكتب وحيطانه وسقوفه بالحرير ويزين الصبي ويسير في موكب حافل بالبهجة والسرور ، وهكذا يظهر لنا مدى اعتزاز الماليك بالقرآن الكريم والشرعية الإسلامية وبعد حصول الطفل على الإصرافه ، والإلام ببعض يد يهبات العلوم يصبح مهيبا لتلقى مرحلة أعلى من المكاتب .

ثانيا : التعليم في المدارس : مطلوب نبذة عن عصره لتلك

كانت المدارس في العصر المملوكي بمثابة كليات عالية بلغت درجة فائقة في التنظيم العلمي والإداري وروعي في تصميمها الأغراض التعليمية وعدد المذاهب وساكن الطلبة والمعيدين وكذلك ألحقت بكل مدرسة مكتبة عظيمة . أما العلوم الأساسية التي كانت تدرس في هذه المدارس ارتبطت

(١) انظر د. / علي السيد علي " القدس في العصر المملوكي " ص ١٥٨

دار الفكر للدراسات والنشر .

بأصول الدين كاللغة والحديث والتفسير ، أو العلوم اللغوية كالنحو والصرف والبيان ، فضلا عن الدراسات العقلية كالفلسفة والمنطق ، أو العلوم العملية كالفلك والكيمياء والطب واهتم كذلك سلاطين السالكين بالمدرسين إن كانت وظيفة التدريس جلية القدر يخلع السلطان على صاحبها في كثير من الأحيان بهدايا ويكتب له توقيع عن ديوان الإنشاء يختلف باختلاف المادة التي يدرسها المدرسون إن كانت تفسيراً أو حديثاً أو غير ذلك ، ولم تقتصر مهمة المدرس على مجرد الإلقاء والتلقين والشرح بل كان عليه أن يسهل على الطلبة الفهم ويحثهم على الاشتغال بالعلم الشريف بل يدربهم ويأخذهم بالأهون فالأهون ، إلى أن ينتهوا إلى درجة التحقيق وإن كانوا منتهين فلا يلقي عليهم الواجبات بل يدخل بهم في مشكلات الفقه ويخوض بهم عابه الزاخر^(١) ، وإذا كان المدرس هو الأستاذ الذي يقوم بتدريس مادة معينة يخصص فيها فإن المعيد كان يساعده بإعادة الإلقاء الدرس على الطلبة بشرح الصعب .

وكان المعيد يتبع استشارة أستاذه ويتبعه في المذهب ومادة التخصص ويواظب على حضور دروسه أما بالنسبة لاختيار مواد الدراسة ارتبط بشروط إنشاء المدرسة ووقتها وكثيراً ما اعتمد هذا الاختيار على مكانة المدرس وشهرته العلمية حتى قيل إن ابن حجر وهو من كبار فقهاء القرن التاسع الهجري

(١) انظر د / علي السيد علي "القدس في العصر السلوكي" ص ١٦٩ ،

دار الفكر للدراسات والنشر .

كان يجتمع حوله بضعة آلاف من المستمعين والمستمليين ، وألحقت بكل مدرسة مكتبة يرجع إليها المدرسون والطلبة وتعدد الأغراض في استخدام المدارس في غير التعليم واستخدمت مقرأ للقضاة ونواب دار العدل للفصل في القضايا وكان ذلك مع بداية الدولة المملوكية وشيد المماليك مدارس ~~مكتبة~~ عديدة خدمت العلم والعلماء وأنفقوا عليها الأموال بسخاء حتى كانت موضع افتخار واعتزاز المماليك إذ جمعت بين الفن المعماري الرائع والتنظيم الحديث ونجوم لامعة في العلم تخرج على أيديهم علماء لهم شأن عظيم ومن أشهر هذه المدارس :-

١ - المدرسة الظاهرية القديمة :-

وعرفت بالقديمة تميزاً لها عن المدرسة الظاهرية الجديدة فالأولى منسوبة إلى الملك الظاهر بيبرس البندقداري ، بناها عام ٦٦١ هـ ، ورتب لتدريس الشافعية بها تقي الدين بن رزين ، ولتدريس الحنفية محي الدين عبد الرحمن بن الكمال بن العيديني ، ولتدريس الحديث الحافظ الحافظ شرف الدين الدمياطي ، ولتدريس القراءات كمال الدين القرني ، وألحق بها خزانة كتب عظيمة ^(١) .

(١) د / عبد اللطيف حمزة (الحركة الفكرية في مصر) ص ١٦٤ ، دار الفكر العربي ١٣٦٥ هـ .

٢ - المدرسة المنصورية :-

نسبة إلى الملك المنصور قلاوون بناها عام ٦٧٩ هـ ورتب فيها
دروسا للفقه على المذاهب الأربعة والحديث والتفسير ودروسا كد لــــك
فنى الطب .

٣ - المدرسة الناصرية :-

نسبة إلى الناصر محمد بن قلاوون وكانت مدرسة عظيمة عين بهــــا
المدرسون للمذاهب الأربعة وألحقت بها مكتبة حافلة وتحسن لبنائها ومنا
المرستان والحق أن الملك الناصر بن قلاوون كان من أعظم سلاطــــين
المالِك شغفا بالعمارة حتى أن المؤرخين عجبوا لهذا التهافت الذى بدأ
من الطك الناصر على البناء والعمارة حتى أن ابن اياس قال عنه " ولا يعلم
لأحد من الملوك آثار مثله " (١) .

٤ - مدرسة السلطان حسن :-

نسبة إلى السلطان حسن بن الناصر محمد بن قلاوون وقيل عنها إنها
لا يعرف منذ ميلاد الإسلام مدرسة من مدارس المسلمين تحاكي هذه المدرسة
فى كبر قاليبها وحسن هندامها وضخامة شكلها وقد تجاوزت العمارة فيها

(١) ابن اياس " بدائع الزهور فى وقائع الدهور " ١/ ١٧٣ ، الهيئة

المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٤ م .

ثلاث سنوات لا تتوقف يوماً واحداً وقال الدكتور كمال الدين سامح عنها إنها من أجمل الآثار الإسلامية في مدينة القاهرة إذ أن مبانيها تجمع بين قوة البناء وعظمته ودقة الزخارف وجمالها ^(١) وقد قدر السلطان حسن للمدارس الفقهية الأربعة مدرسين ، ومراقبين وخصص لها مرتبات ، وألحقت بهـا ساكن للطلبة ^(٢) .

٥ - المدرسة الظاهرية الجديدة :-

فرغ من بنائها عام ٧٨٨ هـ فأقبل الشعراء على السلطان الطـوك الظاهر يهنئونه بها وعين السلطان فيها مدرسين للفقـه على المذاهب الأربعة والحديث والقراءات فلم يكن منهم من أحد إلا متقدما في فنه أو مجال تخصصه ، وعين بالمدرسة سراج الدين البلقيني مدرسا للتفسير وكـاهـا به فخر ^(٣) .

ثالثا : المساجد :-

تعتبر المساجد أقدم مظاهر التعليم التي وجدت في مصر خاصة قبل ظهور المدرسة كمؤسسة تعليمية ولم يقلل ظهور المدارس وانتشارها من

(١) د / كمال الدين سامح " في العمارة الإسلامية " ص ٧١ ، القاهرة .

(٢) المرجع السابق ص ٧٣ .

(٣) د / عبد اللطيف حمزة ، " الحركة الفكرية في مصر " ص ١٦٥ ،

دار الفكر العربي ١٣٦٥ هـ .

شأن المساجد . إن استمر المسجد هو أفضل أماكن التدريس لكثرة المنتفعين
 بالعلم في المساجد وعدم اختصاصها بفئة معينة دون أخرى . فقد تأثر
 التدريس بالمساجد بعض الشيء ، وواجه فترة من الركود النسبي في العصر
 الأيوبي نظراً لاهتمام الأيوبيين بإنشاء العديد من المدارس التي انتقلت
 إليها قيادة الحياة التعليمية في تلك الفترة والتالي تدفق عليها المدرسون
 والطلبة نظراً لما يصرف فيها من المرتبات النقدية والعينية بالإضافة إلى
 السكن المجاني في كثير من المدارس حتى جاء الماليك فأعادوا للمسجد مكانته
 العلمية ولم يكن ذلك يعني تقصير الماليك في توفير متطلبات الحركة التعليمية
 للمدارس وإنما إيمانهم بأهمية التعليم في المسجد ودوره العظيم حتى
 صارت في ذلك العصر المدارس نوعاً من المساجد بل أن المساجد التي أقيمت
 أساساً للعبادة أعطى فيها بعض الدروس ورتب لها الطلبة والمدرسون كذلك
 التي وجدت بالجامع الخصري والجامع الباسطي ، فأصبحت المدرسية
 والخانقة^(١) والمسجد الجامع حتى واحد يقوم بهذه الأغراض مجتمعة ويتضح
 ذلك في معظم المنشآت في عصر الماليك . كما كان في المدرسة الباروقية
 إذ أنها كانت سجداً وجامعاً و خانقة ومدرسة^(٢) .

(١) الخانقة : الخانقة أو الخانكاه " كلمة فارسية معناها دار الصوفية
 يتعمدون فيها " انظر كمال الدين سامح " العمارة في الاسلام ص ٦٩
 دار المعارف .

(٢) انظر د . / عبد الغني محمود " التعليم في مصر زمن الايوبيين والماليك
 ص ١٨٢ .

مظاهر ازدهار الحركة العلمية في (العصر المملوكي) :-

١ - نبوغ علماء (العصر المملوكي) وكثرة مؤلفاتهم :-

يزدان عصر المماليك في مصر وسوريا بنخبة من الفحول والعلماء في مختلف الميادين بحيث يصعب أن ينافسهم عصر آخر^(١) ، وذكر ابن خلدون عند حضور مصر " وما زلت ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له ابن هشام ألفد يونانا أستوفى فيه أحكام الإعراب مجملته ومفصلة"^(٢) وقيل وإنه عندما توفي جلال الدين السيوطي صليت عليه صلاة الغائب بالجامع الأموي كما كانت بعض مؤلفات علماء مصر من الذين اشتغلوا بالتدريس يرسل المملوك والسلاطين من البلاد الإسلامية لطلبها^(٣) وهي فترة من أحفل الفترات التاريخية بالعلماء وأزخرها بالمدارس^(٤) وما يدل على نبوغ هؤلاء العلماء ازدهار المؤلفات في هذا العصر . فقد كثرت كثرة مزهلة ونهضت نهضة بعيدة المدى . حتى أنه كان ينسب للواحد من علماء هذا العصر مئات من الكتب والرسائل فقد قيل إن مؤلفات جلال الدين السيوطي زادت على ستمائة كتاب وابن تيمية زادت مؤلفاته عن خمسمائة كتاب وابن حجر العسقلاني تجاوزت مؤلفاته نحو مائتين وخمسين وخلافه كثير^(٥) .

(١) انظر د . / احمد شلبي ، موسوعة التاريخ الاسلامي ٢٧٢ / ٥ مكتبة

النهضة (١٩٩٠ م) .

(٢) انظر ابن خلدون " المقدمة ص ٤٧ دار المعارف .

(٣) انظر / د . عبد الفتحي محمود " التعليم في مصر زمن الايوبيين والمماليك

دار المعارف ص ٢٧٤ .

(٤) انظر / د . علي السيد علي " القدر في العصر المملوكي ص ١٤٣ ، دار الفكر للدراسات والنشر .

(٥) انظر / د . محمد كامل الفقي : الادب في العصر المملوكي ص ٥٣ : ٥٥ ،

الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦ م .

٢ - الآثار الإسلامية :-

* يعتبر عصر الماليك العصر الذهبي في تاريخ العمارة الإسلامية ففى مصر فقد زادت الرغبة فى تشييد عدد كبير من الأبنية من جوامع ومـدارس وأضرحة وحمامات ووكالات وأسبلة كما ذاع بناء المدافن الكبيرة فى عصر الماليك ، ولعل أبدها مدفن وخانقاة برقوق ومدفن قايتباى ، ومدفن برسباى بصحراء الماليك^(١) وتلك الآثار تدل على ازدهار العلمى لذلك العصر . وذلك يجعلنا نبحث على أهم الأسباب التى ساعدت على ازدهار ونشاط الحركة العلمية فى ذلك العصر وهى :-

١ - انتشار المكتبات :-

كانت المكتبات بمثابة مدارس للتعليم فى شتى العصور الإسلامية ومؤسسات ينفق عليها السلاطين والأثرياء والعلماء لينتشر العلم بين الناس خصوصا فى زمن لم تكن فيه الطباعة متوفرة^(٢) ، فقد كانت محور النشاط التعليمى ومركزا لتحصيل العلم بالبحث والدراسة فى الكتب نفسها والنقل منها تحويها من مادة علمية^(٣) سليمة .

(١) د . كمال الدين سامح : فى العمارة الإسلامية ص ٦٣ ، القاهرة .

(٢) انظر د . على سالم النباهين : نظام التربية الإسلامية فى عصر دولة الماليك فى مصر ص ٢٧٦ ، دار الفكر العربى .

(٣) انظر / د . على السيد * القدس فى العصر المملوكى ص ١٦٩ ، دار الفكر للدراسات والنشر .

٢ - هجوم التتار الشرس على العالم الإسلامي :-

عندما دخل هولوكو وجنوده بغداد في الثالث عشر من فبراير ١٢٥٨م وارتكبوا فيها الجرائم من سلب ونهب وقتل دام أربعين يوماً كاملاً فتكوا فيها بشماتة ألف وهلك في هذه المذبحة الشاملة الآلاف من العلماء والطبلا والشعراء . ونهبت ودمرت في أسبوع واحد المكاتب والكنوز التي تضافرت في جمعها قروناً طويلة وذهبت مئات الآلاف من المجلدات طعمة للنيران^(١) فزاد في حماسهم الخراب الذي كان التتار أن يصيبوا به بلادهم وعلماءهم . كما أصابوا به من قبل البلاد الإسلامية الأخرى فكان ذلك البلاد حافزاً على تدوين الكتب وحفظها خشية من ضياع التراث الإسلامي .

٣ - الأوقاف ودورها في خدمة الحركة التعليمية :-

لقد كان للأوقاف دور هام بالنسبة للتعليم سواء كان بالمدارس أو بالمكاتب التي عرفت باسم كتاب السبيل والأوقاف هي التي دعمت نظام المدارس في العصر المملوكي فكان الربيع الذي تغله الأعيان الموقوفة على المدرسة شهرياً أو سنوياً ، نقداً أو عيناً هو ضمان استمرار العمل بالمدرسة حيث تدفع منه مرتبات أرباب الوظائف بالمدرسة والطلبة حسب شروط الوقف وتدوين الأوقاف

(١) انظر / أول دورات " قصة الحضارة - عصر الايمان " ٣٨٠ / ٢ ،

تحقيق دور دويتا كرافولسكي ٧٠٠ هـ - ٧٤٩ هـ / ١٣٠١ - ١٣٤٩م

كان لا يمكن أن تقوم للمدرسة قائمة في ذلك العصر^(١) ولم يقتصر أثر الأوقاف على التعليم في كونها المورد المالي للمؤسسة التعليمية سواء كانت مدرسة أو مكتباً لتعليم الأيتام ، بل حرص الواقفون في ذلك العصر على أن يلحقوا بكل مدرسة خزانة كتب يرجع إليها المدرسون والطلاب ، ولا سيما الفقهاء منهم مثال ذلك ما نصت عليه وثيقة وقف السلطان الغوري " فيها خلوة كبرى معدة لخزن الكتب بها جنبات خشب نقي يبنى ويسرى وصدرها مثبتة معدة لحفظ ما فيها من كتب العلم الشريف . الموقوفة على طلبة العلم الشريف لانتفاعهم بها في المدرسة المذكورة " :^(٢) وبلغ من عناية الواقفين بأمر تعليم الأيتام أنهم لم يكتفوا بإنشاء المكاتب وترتيب المؤدبين والعمال وتوفير الطعام والكساء فضلاً عن مرتب شهري للأيتام وفوق كل ذلك حرص الواقفون على توفير أدوات الكتابة^(٣) ، وهكذا كانت الأوقاف ركناً ركيزاً وأساس التعليم بمراحله المختلفة في العصر المملوكي وقد هيات للعلماء ولطلبة العلم كل متطلبات الحياة التعليمية .

٣ - تعظيم سلاطين الماليك لأهل العلم :-

اهتم سلاطين الماليك اهتماماً بالغاً بالعلم والعلماء فشيّدوا المدارس والمساجد والخانات وزودوها بكل مستلزمات الدراسة العلمية . واهتموا

(١) انظر / د . محمد محمد امين : الاوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ص ٢٤٠ ، الاوقاف دار النهضة العربية ١٩٨٠ م ، القاهرة .

(٢) المرجع السابق ص ٢٥٥ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٧٥ .

بالعلماء وأجزلوا لهم العطاء وقد موا لهم الإحترام والتكريم وقد روى أن الظاهر
برقوق كان إذا قدم عليه عالم انتصب قائما على قدميه ومشى له خطوات ولما
افتتح مدرسته كان يجلس مستمعا لدروس العلامة علاء الدين السراي واشتهر
الأشرف الغوري بمجالسه العلمية^(١). وهكذا فإن تلك العوامل تشابكت
وتكاثفت فكانت بمثابة محرك قوي للعلماء. دفعهم لطلب المزيد من العلم.

(١) انظر / د. محمود رزق سليم : عصر سلاطين المماليك ٢٩٦/٤ ،
القاهرة ١٩٦٠ م .

الباب الثانى

المظاهر العامة للدعوة الاسلاميه

فى العصر المملوكى

ويشتمل على أربعة فصول :

- * الفصل الأول : دور سلاطين المماليك فى خدمة الدعوة الإسلامية
- * الفصل الثانى : دور سلاطين المماليك فى الدفاع عن البلاد الإسلامية
- * الفصل الثالث : الفتوحات الإسلامية فى العصر المملوكى وأثرها فى خدمة الدعوة الإسلامية
- * الفصل الرابع : أبرز علماء العصر المملوكى وأثرهم فى نشر الدعوة الإسلامية

الفصل الأول
دور سلاطين الممالك
في خدمة الدعوة الإسلامية

الباب الثاني *

* المظاهر العامة للدعوة الإسلامية في العصر السلوكي *

* الفصل الأول *

* دور سلاطين المماليك في خدمة الدعوة الإسلامية *

اعتز المماليك بإسلامهم فلم يكن يربط بينهم رابطة صهر أو قرابة وإنما ربط بينهم الدين الإسلامي الحنيف ، حتى كان السلطان في العهد السلوكي يعرف باسم سلطان الإسلام والمسلمين . وسما امبراطوريتهم بالملكة الإسلامية^(١) ، وذل المماليك قصارى جهدهم في خدمة الدعوة الإسلامية من خلال حفاظهم على الجبهة الداخلية بحيث كانت جهود سلاطين المماليك تركز على محاربة الفساد ونشر الفضيلة والعدل ومحاولة بناء مجتمع إسلامي يكون عوناً له في جهادهم مع أعداء الأمة الإسلامية . وأول من سعى في تحقيق ذلك السلطان الظاهر بيبرس الذي يعد بحق المؤسس الحقيقي لدولة المماليك الأتراك ولم يكن يدعو إلى شيء يفقده فقد كان رحمه الله كما قال ابن كثير :-

* كان شجاعاً عالي الهمة بعيد الغور مقداماً جسوراً معتنياً بأمر السلطنة ، يشفق على الإسلام متحلياً بالملك ، له قصد صالح في نصرة الإسلام وأهله *^(٢)

(١) انظر د . علي ابراهيم حسن ، تاريخ المماليك البحرية ص ٢٠١ ، ط / النهضة المصرية ١٩٦٢ م .
(٢) ابن كثير : البداية والنهاية جز ١٣ ص ٢٧٥ ، دار الفكر العربي .

وسنتناول بالدراسة أهم الأعمال التي نرى أنها مفخرة لسلاطين
المماليك ومساهمة إيجابية وفعالة في خدمة الدعوة الإسلامية .

أولاً : إحياء الخلافة العباسية :-

أحدث سقوط الخلافة العباسية على أيدي التتار رعباً للمسلمين في
العالم الإسلامي ، وظل المسلمون بدون خليفة ثلاث سنوات حتى أحياها
الظاهر بيبرس الخلافة العباسية سنة ٦٦٦ هجرية ، وإن كانت
عادت شكلاً فإنها كانت رمزاً لوحدة المسلمين وفي الواقع أن الأمم الإسلامية
كانت في هذا الوقت متعلقة بأهداب الخلافة ناظرة إلى الخليفة نظرة إكبار
ولجلال^(١) ، فقد كان للخلافة هيئة في نفوس الأعداء وحسن منيع^(٢) للمسلمين
سعوا إلى محاربتها . حتى أن السير ولیم مویر جعلها من أعمال السلطان
بيبرس المجيدة حيث قال " ومن جميل أعماله أنه أعاد الخلافة إلى
العباسيين " (٢) .

ثانياً : محاربة الفساد :-

بعد استقرار السلطة لتولي السلطان الظاهر بيبرس ، سعى سلاطين
المماليك إلى بناء الدولة الإسلامية على أسس إسلامية صحيحة فبدلوا الجهود

(١) انظر د . / محمد جمال الدين سرور ، دولة الظاهر بيبرس ص ٦١ ، دار
الفكر العربي ١٩٦٠ م .

(٢) السير ولیم مویر : تاريخ دولة المماليك البحرية ص ٥٣ ، ترجمة
محمود عابدين وسليم حسن - المعارف - القاهرة .

لمحاربة الفساد الذى دائما يكون العقبة فى الجهود الإصلاحية .

فكان الملك الظاهر بيبرس لا يرى شيئا من الفساد إلا سعى فى إزالته بجهده وطاقته . فحارب الخمول والانحلال الخلقي فرسم بإقامة الخمس وقضى على أماكن الفساد . فضيقوا على أهل المنكر وسلبوا جميع ما كان معهم حتى يتزوجن^(١) ، وكتب إلى جميع البلاد بذلك فضاقت بهم سبل العيش ففى عهده وقل عدد هم واستراحت البلاد من مفاسد هم . ولم تكن قرارات الملك الظاهر بمحاربة الفساد قرارات نظرية وإنما طبقت بصرامة من جانب قواته ولم يكف بذلك بل كان يتفقد الرعية بنفسه متشبهًا بذلك بالخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم .

فقد ذكر المقرئى عن بيبرس* أنه نزل ذات مرة من قلعة الجبل بالليل متنكرًا . وطاف بالقاهرة ليعرف أحوال الناس ، فرأى بعض المقدمين قد أسك امرأة وغراها سروالها بيده . ولم يجسر أحد ينكر عليه فعاقبهم السلطان بأن قطع أيدي جماعة من نواب الولاية والمقدمين ، والخفراء*^(٢) ، حتى قيل فى ذلك :-

ليس لإبليس عندنا إربٌ فغير هذى البلاد مأواه
حرمة الخمر والحشيش معاً أعدته ماء ومرعاه

(١) انظر المقرئى ، السلوك لمعرفة دول الملوك جزء (١) ص ٥٤٠ ،

القاهرة ١٩٧٠ م .

(٢) المقرئى : السلوك ١ / ٥٤٠ ، القاهرة ١٩٧٠ .

وصار سلاطين الماليك من بعده على ذلك الضرب فكان للسلطان
الناصر محمد بن قلاوون دور بارز لمحاربة الفساد فقد رسم بإقامة الخمر
وسنع من التظاهر بشيء من المنكرات ، ويبدو أنه في الفترة التي تلت سلطنة
الظاهر بيبرس تسربت بعض مظاهر الانحراف . ومن ثم فإن الناصر قلاوون
جعل محاربة هذه الانحرافات ^(١) في الأولوية بالنسبة لإصلاحاته وشدد كل
من الظاهر جقمق والملك المؤيد في الخمر وأمر بإحراق ما يوجد في مظانها ^(٢).

ولاشك أنهم لم يشددوا في إبطال هذه المنكرات إلا لئلا يمانهم بأن تلك
المنكرات تورث الفقر والذل وتخذل الهمة وتضعف النفس ، وإن أن الخمر من
أفحش الذنوب وأعظمها خطرا على المجتمع الإنساني كله لذلك حرّمها الشارع
وشدد في تحريمها وفي ذلك يقول الله تعالى : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْمِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوا
لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ " ^(٣) فوصف الله تعالى الخمر بأنه رجس أي قد رتنفر منه العقول
السليمة وهو لفظ يدل على منتهى القبح والخبث ^(٤) . وكذلك العشيش حيث

(١) انظر/ د . حامد غنيم أبو سعيد : الجبهة الإسلامية في عصر الحروب
الصليبية ٢٧٤/٣ .

(٢) انظر ابن حجر العسقلاني ، التاريخ والمنهج التاريخي ص ٣٩٩ ،

دار اقرا ، ط / ١٩٨٤ م .

(٣) سورة المائدة آية رقم ٩٠ .

(٤) انظر عبد الرحمن الجزيري ، الفقه على المذاهب الأربعة حاشية ١١/٥

دار الفكر العربي .

زعم بعض الفساق أن الحشيش ليست محرمة ولكن كلمة العلماء اجتمعت على تحريم هذه المشروبات وغيرها من المخدرات المحدثه . وقد قال علماء الحنفية في ذلك * " إن من قال بحل الحشيشة زنديق مبتدع " ^(١) ولذلك كان محاربة سلاطين الممالك لهذا الفساد عملاً جليلاً للدعوة الإسلامية . ولعبت الحسبة ^(٢) دوراً هاماً في محاربة الفساد فيذكر أن المحتسب فسي

(١) عبد الرحمن الجزيري، الفقه على المذاهب الأربعة حاشية ٢٥/٢٨ ، دار الفكر العربي .

(٢) الحسبة : معناها في اللغة تدل على العدو والحساب، ويقال احتسب بكذا إذا اكتفى بها ، واحتسب على فلان الأمر ، انكسره عليه . واحتسب الأجر على الله : أذخره لديه والحسبة اسم من الاحتساب والاحتساب يستعمل في فعل ما يحتسب عند الله تعالى .

معناها في الاصطلاح : الحسبة عند الفقهاء امر بالمعروف اذا ظهر تركه ونهى عن المنكر اذا ظهر فعله . ودليل مشروعيتها وورود آيات كثيرة تدل على ذلك منها قوله تعالى * وَلَتَكُنْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * سورة آل عمران آية ١٠٤ .

* وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاؤُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ * سورة التوبة من الآية ٧١ هـ . انظر / د . عبد الكريم زيدان ، اصول الدعوة ص ١٧٤ ، مكتبة القدس .

العصر المملوكي كان يريق الخمر . وشغلت المرأة جانبا كبيرا من اهتمام الحسبة . فكان المحتسب يراقب المرأة وما ينبغي أن تكون عليه وما يحرم عليها فعله وارتداؤه . ومنع النساء من الجلوس على أبواب بيوتهن فوسى طرقات الرجال وذلك العمل يتفق مع الشرع حيث إن الله تعالى يقول :

” وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ” (١) .

ولم تقتصر محاربة الفساد على الخمر والانحلال الخلقي فقط وإنما تعدى إلى محاربة الرشوة ذلك الوباء الذي يقضى على ثمره العمل وكان للسلطان الناصر محمد بن قلاوون دور فعال في محاربة الرشوة فعاقب عليها فلا يتقصد المناصب إلا مستحقوها . وذلك نجده قد أخذ بقول الله تعالى :

” وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِإِلْطَافٍ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ هُمْ يُؤْتُونَ أَهْلَهُمْ بِغَدْرٍ ” (٢)

فريقاً مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ” (٣) .

وفي قوله ” يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِإِلْطَافٍ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ ” (٤) . ومارواه الترمذي بسنده عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ” لعن الله الراشي والمرتشى ” (٥) .

(١) سورة الاحزاب من الآية ٣٣ .

(٢) انظر عبد الرحمن الجبرتي ، تاريخ عجائب الآثار في التراجم والاخبار

ص ٣٤٠ ، دار الجيل - بيروت .

(٣) سورة البقرة آية ١٨٨ .

(٤) سورة النساء من الآية ٢٩ .

(٥) فتح الباري بشرح صحيح البخاري جزء ١٥ ص ٣٨٢ .

فقال العلماء : الراشى هو الذى يعطى الرشوة والمرشى هو الذى يأخذ الرشوة وإنما تلحق اللعنة الراشى إذا قصد بها أذية مسلم أو ينال بها ما لا يستحق^(١) .

ثالثا : محاربة البدع والفتن :-

يرجع أصحاب الدعوات الهدامة البدع والفتن لتحقيق مأربهم وتقصف تلك البدع عقبة فى طريق الدعوة الإسلامية . مالم تجد من يكشف قناعها ويوضح حقيقة أمرها . وروجت البدع فى العصر المملوكى حتى أن ابن كثير يعتبر إبطال بدعة نصف شعبان من العجائب فيقول " ومن العجائب والغرائب التى لم يتفق مثلها . ولم يقع من نحو مائتى سنة أو أكثر ، أنه أبطل الوقيد بجامع دمشق فى ليلة النصف من شعبان " ^(٢) وكان ما استقر فى ذهن العامة أن من أبطل ذلك سيموت فى نفس العام ^(٣) فكان مرسوم السلطان الملك الناصر حسن بن الملك الناصر محمد بن قلاوون بإبطالها فبطلت . وهذا إن دل على شىء فإنه يدل على خطورة الأمر وسيطرت تلك البدع على عقول الناس فى ذلك الوقت . وانتشرت الفتن فى الأسواق والحمامات العامة واحتفالات النصارى بعيد الشهيد حيث يزعم النصارى أن لديهم تابوت فيه إصبع يزعمون أنه إصبع بعض شهدائهم وأن النيل لا يزيد مالم يرمى

(١) الذهبى ، الكباير ص ١٤٣ ، مكتبة المتنبي .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية جز' ١٤ ص ٢٣٥ ، دار الفكر العربى .

(٣) نفس المرجع السابق .

فيه هذا التابوت ويحضر ذلك جمع كبير من النصارى ويمتلئ البر بالخميم والبحر بالمراكب المشحونة بالناس ويحدث في ذلك الفتن والمنكرات ولا يقتصر الأمر على مشاركة عامة المسلمين ذلك الاحتفال . وإنما شارك في الاحتفال الأمراء وعن تلك الفتن يحدثنا المقرئ " ولا يبقى صاحب غنا ولا لهو حتى يحضر ، وتتبرج زواني سائر البلاد ، ويبيع في ذلك اليوم من الخمر بنحو مائة ألف درهم ^(١) ، ويزيد من خطورة الأمر أن العامة تعتقد أن زيادة النيل متوقفة على رضى هذا التابوت ، ولم يكن الأمر سهلاً لإبطال تلك الفتن لولا شجاعة الأمير بيبرس الجاشنكير الذى كتب إلى جميع الولاة بالنداء ألا يخرج أحد إلى عمل عيد الشهيد فعظم ذلك على النصارى وسيروا إليه تاج بن سعيد لتمنكه من الأمير بيبرس . فأخذ يحذره من تأثير ذلك القرار على الخراج . فلم يلتفت إليه وصم على إبطاله ^(٢) .

وكان عيد الشهيد يحضر مثل ما كان يفعله المصريون في كل ليلة عيسى بالقاهرة جارية حسنة في النيل ^(٣) ويؤمنون أن النيل لا يزيد إلا بالقاهرة تلك الجارية في النيل ، فبطل ذلك على يد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وزالت تلك العادة السيئة عن أهل مصر ، وعرف سلاطين الممالك خطورة تلك الفتن على الدعوة الإسلامية ولذلك نجدهم يذكرون كل ما يؤدى إلى الفتنة .

(١) المقرئ ، السلوك ١ / ٢٤٠ ، القاهرة ١٩٧٠ م .

(٢) المرجع السابق ص ٢٤٠ .

(٣) انظر ابن اياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ١ / ٦٧ ، القاهرة

فقد حدث أن توقف النيل لمدة سبعة أيام في مدة حكم الملك المؤيد فنودي في الناس بصيام ثلاثة أيام ثم خرجوا إلى الصحراء يستسقون وحضر السلطان والقضاة والمشايخ وكثر الجمع جدا وجلس السلطان على الأرض وصلى بهم القاضي ركعتين كهيئة صلاة العيد ثم رقا منبرا وضع له هناك فخطب خطبتين حث الناس فيها على التوبة والاستغفار وحذرهم ونهاهم ثم تحول فوق المنبر والسلطان في ذلك يبكي وينتحب وقد باش في سجوده التراب بحبيته . ثم ركب السلطان والعامه يحيط به فدعا له بعضهم بالنصر فقال سلوا الله فإنما أنا واحد منكم . ونودي في صباح ذلك اليوم بزيادة النيل اثني عشر ذراعا فاستبشر الناس بإجابة دعواهم ونودي مرة ثانية بزيادة النيل فاتفق أن السلطان سبح في النيل وهو في بيت كاتب السر الذي على شاطئ النيل فاستبشر الناس وقالوا إن ذلك ببركة السلطان فسمع ذلك وأنكره^(١) عليهم وقال لو علمت بسياحتي يحدث ذلك ما سبحت لأن مثل ذلك تفضل به العامة فهكذا كانت صفات الملك المؤيد شجاعا عالمه الهمة كثير الرجوع إلى الحق محبا للشرع وأهله صحيح العقيدة^(٢) كثير التنظيم لا أهل العلم والإكرام لهم وهو بذلك يدرك خطورة تلك الفتن على العامة خاصة . وقد عرف الشيخ عيسى محفوظ ذلك فقال " إِنَّ الْأَوْهَامَ مَرَضُ عَامٍ مَكْرُومٍ مَنْتَشِرٌ فِي كُلِّ مَكَانٍ إِلَّا أَنَّ الْمُتَعَلِّمَ الْعَاقِلَ يَقْوَى عَلَيْهِ فَيُضَعِّفُهُ وَغَيْرُهُ لَا يَقْوَى عَلَيْهِ فَيَصْبَحُ مَرْتَعًا لَهُ يَمْرَحُ

(١) انظر ابن حجر العسقلاني ، التاريخ والمنهج التاريخي ٣ / ٢٢٠ ،

دار اقرط / ١٩٨٤ م .

(٢) المرجع السابق ٣ / ٢٢٧ .

فيه ويرج وأكثر أوهامهم في المسائل الدينية^(١) فكان دورهم في محاربة ذلك حرصاً منهم على اتباع الحق . فحاربوا البدع علناً بقطعه تعالى "وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ" ^(٢) فالصراط المستقيم هو سبيل الله الذي دعى إليه وهو السنة والسبيل وهو سبيل أهل الإختلاف الحائرين عن الصراط القويم وهم أهل البدع والأهواء ^(٣) . عن عائشة - رضى الله عنها - قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - " من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد " ^(٤)

رابعاً : القضاء على فرقة الحشاشين بسوريا :-

فرقة الحشاشين هي من أهم الجماعات التي نشرت الذعر في كثير .

-
- (١) على محفوظ الابداع في مضار الابتداع ص ٤٤١ ، دار الاعتصام .
 (٢) سورة الانعام الآية رقم ١٥٣ .
 (٣) انظر / على محفوظ ، الابداع في مضار الابتداع ص ٩٢ ، دار الاعتصام .
 (٤) عمدة القارى شرح صحيح البخارى ، الجزء الحادى عشر والثانى عشر ، ط / اولى ، مكتبة ومطبعة البابى الحلبي ص ١٩٣ .

من البلاد الإسلامية خاصة خلال عهد الأتراك السلاجقة^(١) واشتهروا بالتآمر والغدر والقتل وزعيم الحشاشين هو الحسن بن الصباح وهو في الراجح فارس من طوس وأنه ادعى غير ذلك وقد درس في حياة مذهب الباطنية واعتنقها واحتل السلطان بيبرس حصونهم بسوريا سنة ١٢٧٢ م ، فتشتت شملهم منذ ذلك الحين وذلك تخلص المسلمون من " تلك الفرقة التي عشت بالقيم والمبادئ " وامتد نشاطها في الدس والاغتيالات^(٢) حتى أصبحت خطرا جسيما على الإسلام والمسلمين .

(١) السلاجقة أو آل سنجوق : دولة تركية انشأت في عهد العباسيين اتو في الاصل من السهول الواقعة شمال بحر قزوين وهم ينتسبون الى سنجوق احد مقدميهم الذي أقرهم في القرن العاشر للبهيلاد نسي بخارى . حيث اسلموا ولقب حفيد طغرل بك سلطانا واستولى على خراسان وغيرها من الولايات الإيرانية ، سنة ١٠٥٦ م استولى على بغداد واستقر بها تابعها للخليفة ولقب امير الامراء ، وتوفي سنة ١٠٦٣ ميلادية وخلفه ابن اخيه ألب ارسلان وتوفي سنة ١٠٧٣ ميلادية وخلفه ابنه مالك شاه فجعل اصفهان عاصمة مملكته التي كانت تمتد من حدود الصين الى القسطنطينية وبعد وفاته سنة ١٠٩٣ اختلف اخيه وأولاده الاربعة على الخلافة نشأت حروب أهلية نتج عنها انقسام الدولة السلجوقية بين اربعة افرع اهمها كان في بلاد فارس وانقرضت مملكته سنة ١٣٠٨ م فاستولت الدولة العثمانية على اكبر بلادهم .

المرجع : بطرس البستاني ، دائرة المعارف ٧١٦/٩ .

(٢) د . / احمد شلبي ، موسوعة التاريخ الاسلامي ٢٣٦/٥ مكتبة النهضة

خامسا : الدعوة إلى الله بالسلوك وأعمال البر :-

إن الدعوة إلى الله بالسلوك والقُدوة الحسنة أوقع أثرا وأعظم نفعا من الدعوة إلى الله بالكلمة وانتهج معظم سلاطين المماليك السلوك القويم . فبعدل سلاطين المماليك لجأت إلى مصر طوائف التتار التي فرت من حكم قائدهم وقد اعتنقت هذه الطوائف الدين الإسلامي ورحب بهم سلاطين المماليك وعرفوا بالوافدين ^(١) . وقد ذكر أن الملك الناصر محمد بن قلاوون أسقط جميع النقوش من أعمال المماليك المصرية والشامية وكان لا يقضى إلا بالحق .

وراك البلاد بالمروك الناصري ^(٢) وكان يغير الشيخ (الحسن) بين الإقطاع والراتب فيعطيه ما يحتاجه وكان سبب صدور المروك الناصري أن أصحاب بيبرس الجاشنكير وسلاز وجماعة من البرجية كان تصب الواحد منهم مائتين ألف شقال في السنة إلى ثلثائة شقال وكان رحمه الله عادلا فمما يذكر أنه كان إذا دخل جندي وتحدث عنه الأمراء بالبرج ليزيد له السلطان فسي

(١) د . / احمد شلبي ، موسوعة التاريخ الاسلامي ٢٤٠ / ٥ مكتبة النهضة سنة ١٩٩٠ .

(٢) المروك الناصري : الروك كلمة قبطية قد اصطلح على استعمالها القيام بعملية قياس الارض وحصرها في سجلات وتنميتها اي تقدير درجة خصوبة تربتها لتقدير الخراج عليها ، ويقولون راك البلاد ويروكها اي فسك زمامها ويقابل الروك في الوقت الحاضر علينا فك الزمام راك البلاد المصرية وكتب بها مقالات سلطانية اي قوائم مساحية رسمية بما يخص كل واضح يد (انظر ابن تغرى : النجوم الزاهرة ٩ / ٤٢) .

إقطاعه^(١) خالفهم السلطان وأعطاه ما يستحق فقط ما أُجبر الأُمراء على السقوط . وشمل عدل الملك الناصر أهل الذمة فكان ذلك دافعا في دخول الكثير في الإسلام فلعل خير ما يترجم عن بعده عن روح التعصب الزميمة الذي كان سائدا في الشرق وفي الغرب على السواء ، فأوقع من اقتصاصه من رجل مسلم قتل مسيحي بغير حق وذلك أنه قدم بالقاهرة من دمشق رجل من أهل التصوف وقد رأى أثناء وجوده شخصا مسلما قد أقبل على نصراني فقبل يده ويرجوه في أمر من الأمور . ولاحظ هذا الصوفي أن النصراني منصرفا عن السلم فألمه ذلك أشد الألم وتقدم من النصراني وقتله واجتمع الناس حول القاتل والقتيل أما المسلم الذي أثار هذه المشكلة فقد اختفى وقبضت الشرطة على القاتل ، ورفع أمره إلى السلطان فأمر بضرب عنقه^(٢) على باب القلعة جزاء . وفاقا لاعتدائه بغير حق على ذلك النصراني . ولو نظرنا لتلك الواقعة ورجعنا بالحكم الشرعي في ذلك لرأينا أن الفقهاء اختلفوا في ذلك الأمر . وقال المالكية يقتل الأذني صفة بالأعلى كزبي قتل مسلما أو كحر كتابي يقتل بعيد مسلم ، لأن الإسلام أعلى من الحرية ولا يقتل الأعلى بالأذني كسليم بكافر وكسليم رقيق بالحر الكتابي .

(١) انظر ابن تغري : النجوم الزاهرة ١٩٨/٩ .

(٢) انظر محمد عبد العزيز مرزوق : الناصر محمد بن قلاوون ص ٢٩٢ ، المؤسسة المصرية العامة .

قال الشافعية والحنابلة ببطلان قتل المسلم بزنى .

أما الحنفية قالوا بقتل المسلم بالزنى لأن الله تعالى قال * الْحُرُّ بِالْحَرْ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى * ^(١) وقالوا الزنى مع المسلم متساويان في الحرمة التي تكفي في القصاص وهي حرمة الدم الثابتة على التأييد والمسلم كذلك وكلاهما قد صادق أهل دار الإسلام ، والذي يحقق ذلك أن المسلم تقطع يده بسرقة مال الزنى وهذا يدل على أن مال الذي قد ساوى مال المسلم فدل على مساواته بدمه ، إن المال إنما يحرم بحرمة ماله ^(٢) واحتجوا بما روى محمد بن الحسن عن إبراهيم رحمه الله تعالى * أن رجلاً من المسلمين قتل رجلاً من أهل الذمة ورفع ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال * أنا أحق من وفي بدمته ، ثم أمر به فقتل * ^(٣) وقد أخذ الملك الناصر قلاوون بالذهب الحنفى حين حكم بقتل الرجل المسلم الذي قتل المسيحي بغير حق ويعتبر ذلك في قمة العدل إذا ما قورن بالمجتمعات الغربية والشرقية على السواء في عصره .

هذا إلى جانب تعدد أعمال البر في العصر المملوكي فأقاموا التكايا : وهي مؤسسات عرفت في هذا العصر يقدم فيها المأكولات للمعطلين ^(٤) والأسيلة أمكنة للشراب عرفت بالسبل أقيمت لأبناء السبيل كما أقاموا المؤسسات الخيرية

(١) سورة البقرة من الآية رقم ١٧٨ .

(٢) انظر عبد الرحمن الجريزى ، الفقه على المذاهب الأربعة ٢٨٢ : ٢٨٥

(٣)

(٤) انظر د . احمد شلبي ، موسوعة التاريخ الاسلامي ٢٧٤ / ٥ مكتبة

النهضة ١٩٩٠ .

المختلفة عملاً بقوله تعالى "وَإِذَا نَادَى الْقَرْيَىٰ حَقَّهُ وَالسَّكِينِ وَإِنَّ السَّبِيلَ وَلَا تُبَدِّرْ تَبَدُّيراً" (١) فأقام الملك المنصور قلاون بيمارستان وعنه يقول السيد ولیم مویر "إن الذي جعل أكسنة الناس تلهج بالشناء عليه ، والإعتراف بحسن صنيعه هو ذلك البناء الضخم الذي شيده في المدينة والذي يشمل بيمارستان ومدرسة تحتوى على قبة فيها قبره . وقد أعد فيه غرفاً متممة وفرشها بالأسرة للمرضى من الفقراء والأغنياء وعين فيه محاضرين وذود وهما بمعمل كيماءى بكل أنواع المعدات الطبية وعين فيها خمسين من القسراء يتلون آيات الله ليلاً ونهاراً وفي ذلك يقول الله تعالى "وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً" (٢) .

وأقام مدرسة وملجأ للأيتام (٣) ، إلى جانب ذلك ظهرت الموائد الرمضانية ووجدت أوقاف على تكفين أموات الغرباء (٤) بالقاهرة ومصر . وقد حدث أن اشتد الحال بالناس سنة ٦٦٢ هـ وعدمت الأقوات وضح الفقراء بالجوع وكان ذلك في عهد الظاهر بيبرس فأحصاهم وكلف كل أمير بالإغناق على عدد معين منهم وتولى هو بنفسه خمسمائة فقير (٥) ، عملاً بقوله تعالى "وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامُ عَلَىٰ حَيْثُ مَنَكِنَا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا" (٦) فهكذا كان سلوك السلاطين المالكيك عظيماً للدعوة الإسلامية .

-
- (١) سورة الاسراء اية ٢٦ . (٢) سورة الاسراء اية ٨٢ .
 (٣) انظر ولیم مویر ، تاريخ دولة المالكيك البحرية ص ٦١ .
 (٤) انظر ابن تغرى ، النجوم الزاهرة ٢ / ١٨٠ .
 (٥) انظر محمد جمال الدين سرور ، دولة الظاهر بيبرس ص ٢٢ ، دار الفكر العربى سنة ١٩٦٠ م . (٦) سورة الانسان اية ٨ .

سادسا : أعمار المساجد :-

للمسجد مكانة عظيمة في الإسلام فعمارهم صفة خلق الله من الأنبياء والمرسلين وأتباعهم من عباده المؤمنين وقال الله سبحانه وتعالى عن عمار المساجد * إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنِ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُتَّقِينَ ^(١) ووعد الله سبحانه وتعالى من بنى له بهتارا في الأرض أن يسجدوا لله تعالى بنسبته الله له بيتا في الجنة كما في حديث عثمان بن عفان رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول * من بنى لله سجدا بنى الله له كهيته في الجنة * ^(٢) واهتم سلاطين الممالك بإنشاء المؤسسات الدينية عامة والمساجد ^(٣) بصفة خاصة في محاولة لتقوية رباط الدين بين أبناء الأمة الإسلامية وحرصا منهم على إحياء الشعائر الإسلامية حتى قال عنها القلقشندي * إنها أكثر من أن تحصى وأعز من أن تستقصى ^(٤) . وفي هذا المجال قامت الأوقاف بدور كبير من أجل تقديم المساجد والجوامع وتمكينها من أداء رسالتها ويمكن أن نقول إن قوة الشعور الديني التي وجدت في العصر المملوكي صاحبها ازدهار الأوقاف وانتشارها ^(٥) . فأصبحت المساجد في العصر المملوكي مركزا للإشعاع الفكري والحضاري وذلك بأن السلاطين

(١) سورة التوبة آية ١٨ .

(٢) مسند الامام احمد بن حنبل ، المجلد الاول ، دار الفكر العربي ص ٢٠

(٣) للمزيد عن مساجد العصر المملوكي راجع د . سعاد ماهر : مساجد

مصر وأولياؤها الصالحون ٤/٣ ، القاهرة .

(٤) القلقشندي : صبح الاعشى ٣/٣٦٥ ، الهيئة المصرية .

(٥) انظر د . محمد محمد امين ، الاوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ص ١٨١

والأمر أن أوقفوا عليها الأموال والأراضي تشجيعاً للعلم والعلماء وقد أدت المساجد رسالتها العلمية وأسهمت في نشر الإسلام واللغة العربية والثقافة الإسلامية^(١).

وفي حديثنا عن دور الماليك في إعمار المساجد لابد أن نشير إلى دور الراحل من سلاطين الماليك في إعادة الأزهر مجده .

استرداد الأزهر مكانته :-

ظل الأزهر محروماً من إقامة صلاة الجمعة فيه ثمانية وتسعين عاماً من سنة ٥٦٧ هـ حتى سنة ٦٦٥ هـ / سنة ١١٧١ حتى سنة ١٢٦٧ ميلادية وقد استغرقت هذه السنوات حكم الدولة الأيوبية وزهاء سبع عشرة سنة من حكم دولة الماليك البحرية وعاش الأزهر طيلة هذه الفترة متخلفاً عن مساجد القاهرة بعد أن كان المسجد الأول في الديار المصرية . والمسجد الرسمي للدولة في العصر الفاطمي^(٢) ويرجع ذلك إلى سياسة الأيوبيين التي كانت تهدف إلى محاربة التشيع وما أن الأزهر كان بؤرة الإشعاع للذهب الشيعي في العصر الفاطمي فقد أصطدم الأيوبيين بالأزهر كجامع وجامعة . إلا أن الماليك أحسنوا التصرف حينما حاربوا الفكر بالفكر فجعلوا الأزهر مركزاً

(١) انظر د . فتحية الخبراوي : تاريخ النظم الإسلامية ص ٢٧٥ .

(٢) انظر عبد العزيز محمد الشناوي : بحث في كتاب دراسات في

الحضارة الإسلامية ص ٦٦ : ٦٨ .

للإشعاع الفكرى والحضارى وقوة علمية تدافع عن المذهب السنى وتنشره
وأعيدت الخطبة فى الجامع الأزهر فى عهد بيمرس وقد تمت الهبات وتوالت
إمارتهم لعناء فاجتذب الأزهر إليه صفوة من العلماء من أنحاء العالم
الإسلامى وبذلك أعيد للأزهر مكانته وقد قال القلقشندى : "إن الجامع
الأزهر قد أخذ منذ ذلك الوقت يتزايد أمره حتى صار أرفع الجوامع بالقاهرة
قدرا" (١).

سابعاً : إكرام العلماء والدعاة :-

اهتم سلاطين المماليك بالقائمين على أمور الدعوة الإسلامية فعينوا
للمساجد دعاة ومؤذنين وعالماً وأنزلوا لهم العطايا ورفعوا من شأنهم فتولوا
المناصب الرفيعة فى الدولة كالوزارة ونظارة بيت المال ونظارة الخاى وكتابه
السر والقضا .

ثامناً : تعظيم الأماكن المقدسة :-

عظم الله الأماكن المقدسة فعن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد مسجدى هذا والمسجد الحرام والمسجد
الأقصى (٢) وجعل الله البيت الحرام محطة أنظار المسلمين فكل مسلمى

(١) القلقشندى : صبح الاعشى ٣/٣٦٤ ، الهيئة المصرية العامة
للكتاب ١٩٧٧ م .

(٢) صحيح مسلم فى شرح النووى - المجلد السابع ج ٩ كتاب الحج باب
فضل المسجد الثلاثة ص ١٦٧ .

العالم يتجهون إليه في صلواتهم * ومن حيث خرجت قول وجّهك شطر المسجد الحرام^(١) * ويحجون إليه طلبا للإستغفار والرحمة فيقول الله تعالى * ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا^(٢) * وفي قوله * وآيّن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق^(٣) .

وعظم المسجد الأقصى فكان مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سبحانه وتعالى * سبحان الذي أشرأب بعينه ليلنا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي بآركنا حوله لغيره من آياتنا^(٤) وأولى سلاطين المالك الأماكن المقدسة اهتماما وتقديرا عظيما فبالقوا في احترام أملاكها وأهلها ففي سنة ٦٦٧ هـ قدم السلطان بيبرس إلى مكة المكرمة في الخامس من ذي القعدة وقى لأحد الناس لا يحجبه أحد وغسل الكعبة الشريفة بيده وحمل الماء على كتفه^(٥) بالقرية ، وغسل البيت وجلس على باب الكعبة وأخذ بأيدي الناس . وسبل البيت الحرام للناس وعمر الحرم النبوي الشريف . ولم يكتف بيبرس بالعناية بالحرمين الشريفين بل أمر سنة ١٢٦١ بإرسال الصناع والآلات لعمارة قبة الصخرة بالقدس وحدد مسجد إبراهيم عليه السلام^(٦) . وقد

(١) سورة البقرة من الآية رقم ١٤٩ .

(٢) سورة آل عمران من الآية رقم ٩٧ .

(٣) سورة الحج الآية رقم ٢٧ .

(٤) سورة الاسراء آية رقم ١ .

(٥) انظر العيني : عقد الجمان ٤٦/٢ .

(٦) د / احمد مختار العبادي : قيام دولة المماليك الاولى في مصر

والشام ص ١٩٧ .

ذكر عنه الناصر محمد بن قلاوون حج سنة ثمانى عشرة وسبعمائة ووزع على فقراء مكة نحو عشرين ألف دينار وأبطل أشياء كثيرة من المكوس التى كانت بمكة ، ثم بعد ذلك توجه إلى المدينة الشريفة فدخلها ماشيا^(١) على أقدامه وقيل فى ذلك :-

د نوت تواضعا وعلوت مجدا فشأنك انخفاض وارتفاع
فذاك الشمس تبعد إن تسامى ويدنو الضوء منها والشعاع

وزار قبر النبى صلى الله عليه وسلم وهو مكشوف الرأس ثم وزع على فقراء المدينة عشرين ألف دينار كما فعل بمكة ، واهتم أيضا بمعظم سلاطين الماليك بالأماكن المقدسة بما فى ذلك بيت المقدس^(٢) ، واعتبر سلاطين الماليك إقليم الحجاز والأماكن المقدسة جزءا لا يتجزأ من ملكهم الإسلامية وشعروا بالمسئولية تجاه رعاياها ويؤكد ذلك تلك الحادثة . فقد ذكر أن الملك الظاهر بيبرس بلغه أن الشريف محمد بن تقي بن سعيد حاكم مكة والمدينة المنورة وقع منه ظلم للتجار والحجاج والمالين والواردين إلى الحرمين الشريفين وتجاوز الأمور وخرج عن الحد فكتب إليه . أما بعد فالحسنه فى

(١) انظر / ابن اياس : بدائع الزهور من وقائع الدهور ج ١ القسم الاول ص ٤٤٩ تحقيق محمد مصطفى : الهيئة المصرية للكتاب القاهرة ١٩٨٠
(٢) للمزيد عن اهتمام سلاطين الماليك بيت المقدس ، راجع د . محمد سيد على : القدس فى العصر المملوكى تحت عنوان " الانجازات والمنشآت ذات الدلالة الدينية التى انشئت فى العصر المملوكى لبيت المقدس ص ٢٧ : ٣١ .

نفسها حسنة وهي من بيت النبوة أحسن والسيئة في نفسها سيئة وهي من بيت النبوة أقبح . وقد بلغنا أيها السيد أنك بدلت حرم الله بعد الأمن بالخيفة وفعلت ما يحمر الوجه ويسود الصحيفة . فكيف تفعل القبيح وجحدك الحسن وتضيع الغروض ومن بينكم عرفت الغروض والسنن وتقاتل حيث لا تكون فتنة وأنت من أهل الكرم وساكني الحرم . فكيف آويت المجرم وأسفكت دم المحرم ومن يهين الله فعالمه من مكرم ، فإن لم تقف عند حدك أغمدنا فيك سيف جددك والسلام * فكتب إليه الجواب * أما بعد فالملوك معترف بذنبه تائب إلى ربه . فإن أخذت فأنت الأقوى وأن تعفوا أقرب للتقوى ^(١) . فهكذا نعمت الأملاك المقدسة في العصر المملوكي بعناية خاصة وإن دل ذلك إنما يدل على تعظيم سلاطين الممالك للإسلام وزادهم ذلك احتراماً من الرعية .

تاسعا : تربية النشئ * من الممالك تربية إسلامية :-

يعتبر تربية النشئ * من الممالك تربية إسلامية هي القاعدة التي انبثق منها العمل الإسلامي لخدمة الدعوة الإسلامية في ذلك العصر حيث كان لسلاطين مصر وقتئذ عناية بالممالك من جميع الأجناس واحتفال زائد بتربيتهم وكانوا يسكنوهم القلعة في طباق مخصوصة ويسلم الملوك الصغير إلى معلم يعلمه القراءة والكتابة وكان لكل طائفة فقيه يعلمهم أمور الدين والآداب ، والقرآن . فإذا شب وقوى سلم المعلم يعلمه أنواع الحرب وفنون الغروسية ونسب

(١) انظر/ محمد بن علي الاسماعي : اخبار الاول فمن تصرف في مصر

من ارباب الدول ص ١٤١ .

ذلك نظام تربيوى بناه هادف لخدمة الإسلام والمسلمين . إذ أن القسوة وحدها دون إيمان لا تكفى لبنا مجتمع إسلامي . فخضوع الملوك لتلك التربية الإسلامية هو ما جعلنا نجد فى سلاطين المماليك النزعة الإيمانية . وفى ضوء ذلك يمكن تفسير الأحداث التاريخية فى ذلك العصر . فنجد أن السلطان سيف الدين قطز عندما وجد علامات القلعة لدى بعض الأمراء . خاطبهم بروح الإسلام وأيقظ فيهم شعيرة الجهاد . فضجوا بالبكاء وذلك قضا على الإنهزامية فى صفوف جيشه . وما حدث أثناء إقدامه ستقر الأشقر عند ما تصارع على السلطة مع السلطان المنصور قلاوون وعزم على قتال الجيش المصرى فوجه إليه قلاوون خطابا يذكره بمصلحة الأمة الإسلامية فعدل عن ذلك ويغسلنا تعدد أعمال البر فى ذلك العصر . حتى أننا نجدهم حريصين على نشر الفضيلة بين أفراد رعيته فقد ألزم الظاهر بيبرس رجال حاشيته^(١) بإداء الصلوات فى أوقاتها ليكونوا قادة الشعب فى الأمور الدينية . كما هم قادته فى الشؤون السياسية وكان هو مثلا أعلى فى ذلك . حيث يذكر أنه كان رحمه الله ملازما للصلوات الخمس فى أوقاتها سفرا أو حضرا^(٢) . وذلك لأنه يعلم جيدا أنها الصلة بينه وبين ربه ، ولأنها الماحية للذنوب .

(١) انظر / د محمد جمال الدين سرور ، دولة الظاهر بيبرس ص ١٥٤ ،

دار الفكر العربى ١٩٦٠ م

(٢) انظر / د حامد غنيم أبو سعيد : الجبهة الإسلامية فى عصر

الحروب الصليبية ٢٧٣/٣ .

فحقا لقد تربوا في كل مدارس الحرب والسياسة ، فكانوا وهم صفار
متعلمين بالعلوم ، والفلسفة ، والدين ، فضلا عن الغروسية واستعمال
السلح. وذلك كانوا جائزين^(١) لجميع الصفات التي تؤهلهم لمركز القيادة
وانهم برعوا في الفنون الحربية ، بحيث كانوا سادة يد يرون الممالك ، وقادة
يجاهدون في سبيل الله ، وأهل سياسة يبالغون في إظهار الجميل^(٢).

(١) انظر / دراسة رشدي . مصر الشراكسة من ١٣٨٠ ، القاهرة ١٩٤٨

(٢) د / عبد المنعم ماجد : طومان باي آخر سلاطين المماليك ص ٢٦

مكتبة الانجلوا المصرية ١٩٧٨ م.

الفصل الثانى
دور سلاطين المماليك
فى الدفاع عن البلاد الإسلامية

* دور سلاطين المالكي في الدفاع عن البلاد الإسلامية *

زامن سقوط الدولة الأيوبية وانتقال السلطة من الدولة المملوكية أن
 تعرض العالم الإسلامي لأخطار كثيرة هددت كيانه . وفي مقدمة هذه
 الأخطار في الشرق الأدنى يأتي خطر التتار . بالإضافة إلى الخطر الصليبي
 الذي كان موجودا من قبل ، فضلا عن الأخطار التي هددت دولة المماليك
 من جانب النجمة جنوها والتركمان ^(١) شمالا وستتناول بالدراسة الدور البطولي
 لسلطان المماليك من خلال جهادهم المتواصل ضد الأعداء المتربصين
 بالأمّة الإسلامية مسلطين الأضواء على الدور البارز لسلطان المماليك في
 إحياء شعيرة الجهاد . فكان لابد لهم من الاستعداد للعدو وعلا بقول
 الله تعالى : " وَأَعِدُّوا لَهُمْ تَأَسَّطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَتَبِتَ بُيُوتُ الْأَخْلَاقِ تَرْهَبُونَ
 مِنْ عَدُوِّ اللَّهِ وَعَدُوِّكُمْ " ^(٢) "وَأَخْرَجَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَإِنَّا لَنُفَقِّهُو
 ا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . يَوْمَ إِلَيْكُمُ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَعُونَ ^(٣) "

تكوين جيش قسوى :-

قامت الدولة المملوكية على نظام حربي فريد حيث يتلقن المملوك فنون الفروسية وهو في سن مبكرة بالطباق وهويثابة المدرسة الحربية في ذلك الوقت فضم الجيش المملوكي جنودا مدربة تدريباً عسكرياً جيداً . فسار الجيش المملوكي في ذلك العصر من أقوى الجيوش عدداً وقوة . بحيث تغلب على أكبر جيوش الأرض كالصليبيين والمغول ، حتى عرف الجيش المملوكي بالهبة

(١) انظر : د. ابراهيم حسن سعيد : البحرية في عصر سلاطين المماليك

ص ٥ دارالمعرف ١٩٨٣ .

(٢) سورة الانفال اية رقم ٦٠ .

بالجيش أو الجيوش المنصورة فكان له دور بارز في جهادهم المتواصل وكانت حياتهم سلسلة من حلقات الجهاد المتواصلة فكانوا يحق كما قال عنهم المؤرخون إنهم كانوا دأوية الإسلام^(١) . وإلى جانب الأخطار الخارجية كانت هناك أخطار داخلية . كانت توصف بالدولة الناشئة وهى الصراع على السلطة بين المماليك والأيوبيين الذى جعل الملك الناصر يمدى التعاون مع التتار .

وفى ذلك بسلا* عظيم . فكان لا بد لهم من توحيد الجبهة الإسلامية حتى يتسنى لهم مواجهة الأعداء ومن الله على مصر بقائد عظيم هو السلطان سيف الدين قطز الذى استطاع أن يوحد صفوف الجنود ويخمد المنازعات عن السلطة وبذلك أصبحت الجبهة الإسلامية فى استعداد لمواجهة الأعداء .

أولاً : الجهاد ضد التتار :-

تمرضت الأمة الإسلامية لهجمات شرسة من قبل التتار وعن خطورة ذلك المد ويقول ابن الأثير* لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها كارهاً لذكرها . فأنا أقدم رجلاً وأخير أخرى فمن الذى يسهل عليه أن يكتب معنى الإسلام والمسلمين ومن الذى يسهل عليه ذكر ذلك ؟ فإياي أرى لم تلدننى ، وإياي تنى مت قبل حدوثها وكنت نسياً منسياً . إلى أن حثنى جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجرى نفعاً فنقول هذا يتضمن ذكر الحادثة

(١) انظر د حامد غنيم أبو سعيد : الجبهة الإسلامية فى عصر الحروب

العظمى والمصيبة الكبرى التي عفت الأيام واليالي عن مثلها . عت الخلائق وخاصة المسلمين فلو قال قائل : " إن العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلهم لكان عادقا . كآن التواريخ لم تضمن ما يقاربها وما يدانيها " (١) حيث دخلت جيوشهم بغداد فتفك بأهلها دون التفرفة بين عبي أو امرأة أو شيخ ، أما من بقي من القتل فقد أسر حتى بلغ عدد القتلى حوالي ثمانى مائة ألف قتيل (٢) . وسقطت الخلافة العباسية بقتل الخليفة العباسى على أيدي المغول .

بداية الصراع بين المماليك والمغول :-

كان العدو والمغولى (٣) له أطماع توسعية فى العالم بصفة عامة والعالم الإسلامى بصفة خاصة فبعد استيلائه على بغداد سعى للإستيلاء على مصر والشام . فأرسل هو لاكو إلى الملك المظفر قطز خطايا مضمونة " إلى المظفر قطز الذى هو من حيسى الترك الذين هربوا من سيوفهم . فإننا جند الله فى أرضه ، خلقنا من سخطه فسلموا إلينا تسلموا من قبل أن تندموا

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج٩ ص ٣٢٦ دار الفكر بيروت .

(٢) أنظر د . حامد زيدان صفحة من تاريخ الخلافة العباسية فى ظل دولة المماليك ص ١٤ .

(٣) المغولى : أو المغل قبيلة من التتر كانت تقيم حول بحيرة بتيغسـال (أوبكال) فى جنوب سيبيريا وتاريخهم القديم سقيم . لانهم لـم يظهروا الا بظهور جنكيز كان فى أوائل القرن السابع الهجرى " جرج زيدان تاريخ التمدن الإسلامى فـجـ٤ ص ١٣٨ .

وقد سمعتم بأننا أضربنا البلاء وقتلنا العباد . فلکم منا الحرب ولنا منکم الطلب . فمن طلب حربنا ندم ومن قصد أماننا سلم . فإن أنتم لأمرنا طعتم فلکم مالنا ولنا مالکم . وإن خالفتم هلکتُم فلا تهلكوا أنفسکم با أيديکم . فقد أعذر من أنذر فعبءوا بالجواب قبل أن تضرب الحرب بنارها .

وترسمکم بشرراها فلا بقی لنا مقصد سواکم .^(١) والسلام * وكان الكتاب بصحبة أربعة رسل فلما سلم المظفر قطز الكتاب تغير تغيرات شديدة وأمر بتوسيط الرسل الأربعة فوسطوا وأمر السلطان بجمع الأمراء وقادة الجيش وحشهم على القتال ورغهم فيه .

وذكرهم بما لحق بالأقاليم الإسلامية التي اجتاحتها المغول من القتل والنهب والدماء والحريق^(٢) . ودعاهم إلى نصرته وإسلام والجهاد في سبيل الله دفاعا عن المسلمين وحرمتهم وخوفهم من عقاب الله وإن هم ولوا الأديبار أمام عدوهم . فتأثروا بقوله وجدوا بالبكا وتحالفوا على الاجتهاد في قتال التتار .

(١) انظر القرمانى : تاريخ الاول واثار الاول ص ١٩٨ عالم الكتب بيروت
(٢) القوسيط : هو أن يضرب الشخص بالسيف ضربة لقطعة نصفين ، وكان هذا النوع من الاعدام شائعا في العصور الوسطى * مفترج الكروب ج ٢ ص ٣٩٢ .
(٣) المقديزى : السلوك ج ١ ص ٤٣٠ القاهرة ١٩٧٠ .

معركة عين جالوت :-

شهدت (عين جالوت) التي تقع من بيسان ونابلس معركة من أخطر معارك التاريخ حيث التقى المسلمون بقيادة السلطان قطز مع التتار في ١٥ رمضان سنة ست مائة وثمان وخمسين هجرية الموافق سنة ألف ومائتين وستين ميلادية وانتصر فيها المسلمون على أعدائهم ومزقوا شمل المغول كل ممزق وكان المغول خصما عنيدا اقويا حتى قبل أن كتبغا قائد الجيش المغولي تحول أثناء المعركة إلى قطعة من اللحم بسبب القصب . وقد أظهر المسلمون شجاعة متقطعة النظير . فكان ذلك الانتصار شرة جهنم مشتركة من القادة والأمرأ والجنود .

ولعل خير دليل على ذلك حرص السلاطين على الجهاد في سبيل الله بأنفسهم فيذكر العيني عن السلطان سيف الدين قطز في موقعه عين جالوت أنه لما كان في المعركة قتل جواده ولم يجد أعداء في الساعة الراهنة من الوشاقية فترجل وبقي كذلك واقفا على الأرض ، ثابتا في محل المعركة وموضع السلطنة من القلب ، فلما رأى بعض الأمرأ ترجل عن فرسه وطلب من السلطان الركوب ، فاستنع السلطان ورد قائلا " ما كنت لأحرم المسلمين نفعك ، ولم يزل كذلك حتى جاءت الوشاقية فركب ، فسلام بعض الأمرأ وقال يا قطز لما لم تركب فرس فلان ؟ فلو كان رأيك ببعض الأمرأ لقتلك . وهلك الإسلام بسببك فقال أما أنا فكنت أذهب إلى الجنة

(١) الوشاقية : الاوشقية او الاوحقية جمع أوشاق . أو جاق : فرقه من خدم السلطان عملها ركوب الخيل والتسير والرياق صبحى الاعشى ج ٥ ص ٤٥٤ *

وأما الإسلام فله رب لا يضيعه قد قتل فلان وفلان وعدد خلقا كثيرا — من الملوك فلن يضيع الله الإسلام . (١)

نتائج معركة عين جالوت :-

- ١ - تيد وأهمية هذه المعركة على وجه الخصوص ، إذا ما تصورنا أنها جاءت بنتيجة عكسية وانتصر فيها المغول ، إذ لسقط معقل للإسلام في فلسطين وصر^(٢) ، خصوصا وأن قوى الشر الصليبية كانت تقف بالمرصاد للمسلمين وأبدت التحالف مع المغول في سبيل القضاء على الإسلام والمسلمين .
- ٢ - قضى هذا الانتصار على الفكرة التي كانت سائدة عند الدولة المسيحية بأن الجيش المغولي جيش لا يقهر .
- ٣ - حفظت مصر وأثارها من الخراب الذي كان طبيعة النصر المغولي .
- ٤ - أعادت الوحدة بين مصر والشام^(٣) تحت حكم المماليك . وهى الوحدة التي زاق مرارها الصليبيون .
- ٥ - إعادة الثقة إلى نفوس المسلمين الذين أصبحوا يشكون في وجود قوة على الأرض تستطيع مواجهة المغول . ولكن ماذا كان موقف السلطان سيف الدين قطز وهو منتصر على أقوى جيش في العالم .

(١) أنظر العيني : عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ج ١ ص ٢٥٩ ،

تحقيق محمد أمين - الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ١٩٨٩ .

(٢) أنظر / د . فؤاد عبد المعطى : المغولي في التاريخ من ضكير كان

الى هولكوص ٢٠٩ القاهرة ١٩٦٠ .

(٣) أنظر / د . أحمد شلبي موسوعة التاريخ الاسلامى ج ٥ ص ٢٥٠ ،

مكتبة النهضة ص ١٩٩٠ .

هل نسب النصر إلى نفسه أو سعى في الأرض فسادا وتغطرسا . كلا
إنسانجده بعد أن أصبحت هزيمة المغول أمرا مؤكدا قد نزل فرسه
ومرغ وجهه على الأرض وقبلها وصلى ركعتين^(١) شكرا لله تعالى على ما بقوله
تعالى (لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ)^(٢)

سيرة الجهاد ضد المغول بعد عين جالوت :-

واصل السلطان الظاهر بيبرس راية الجهاد بعد السلطان قطز
وكانت سياسته مع العدو واضحة، فقد وصله رسل أبا معهم مكاتبات
ومشافها ، فمن جملة المشافها أنت ملوك بعث بسيواس فكيف يسمح
لك أن تحالف ملوك الأرض وأعلم أنك لو صعدت إلى السماء أو هبطت
إلى الأرض ما تخلصت منا فأعمل لنفسك على وصالحه السلطان أبا فلم
يلتفت إلى ذلك ولا عده شيئا . بل أجاب عنه معلنا سياسته مع ذلك العدو
بكلمة أضافت سجل التاريخ وظلت شاهدة على عظمة سلاطين المالك في
الدفاع عن البلاد الإسلامية . فقال لرسله " أعلموه أني من ورائه بالمطالبة
ولا أزال حتى أنتزع منه جميع البلاد التي استحوذ عليها من بلاد الخليفة ،
وسائر أقطار الأرض^(٣) وترجم بيبرس ذلك الكلام إلى واقع ملموس . حيث تعظمت
في عهده أسطورة الشبح المغولي وأخذ الإسلام ينتشر بين هؤلاء الغزاة

(١) انظر / د . حامد غنيم أبو سعيد الجبهة الإسلامية في عصر الحروب

الصلبين ج ٣ ص ٢٧٠ .

(٢) سورة إبراهيم آية (٧) .

(٣) انظر / من كثير البداية والنهاية ج ١٣٢ ص ٢٥٤ دار الفكر العربي .

وبالتالى استعادت الجبهة الإسلامية ثقتها فى قدرتها على مواجهة التحديات بل وقرض إرادتها^(١) على العدو .

موقعة حمص :-

وفى أثناء عهد السلطان الملك المنصور قلاوون أخذت جيوش التتار تحتاج الحدود السورية ثانية مرتكبين نفس الفطائع التى ارتكبوها منذ عشرين عاما . وكان ما شجعهم على ذلك الخلاف الذى ساد فى صفوف الأمراء المماليك . وطبقا لحسابات العدو والمغولى القاصرة التى لا تدرك إلا المقاييس المادية اعتقدوا أن الصراع على السلطة بين سنقر الأشقر الذى خرج على طاعة الملك المنصور قلاوون ونادى بنفسه سلطانا على دمشق . سيتفق معه على قتال الجيش المصرى ولكن أمراء المماليك خاطبوه بروح الإسلام وقالوا له إن العدو داهنا وماسيه إلا الخلاف الذى بيننا وما ينبغى هلاك الإسلام فتأثر وتراجع عن موقفه ومنع جنده من معاربة المصريين وقد ارتكب جيوش المغول جرائم لا تحصى فأُحرقوا ما يجلب من جوامع ومدارس فتملك أهل دمشق الهلع والفرع وها جرندهم خلق كثير إلى مصر والتقت جيوش المغول بجيوش السلطان قلاوون الذى كانت تتكون من جنود مصر والشام وفريق كثير من الأكراد والتركمان حيث نودى فى الجيش الأقوى للجهاد فلبى النداء جموع كثيرة وحضر إلى ميدان القتال المسلمون من كل أرجاء الأرض . وكان اللقاء بالقرب من

(٢) أنظر / د . حامد غنيم أبو سعيد : الجبهة الإسلامية فى عصر

الحروب الصليبية ج ١٣ ص ١٧١ .

حمص وكانت معركة شديدة وقاتل المماليك قتالاً شرفاً وحملوا على جيش المغول حملة صادقة أنهت بهزيمتهم هزيمة ساحقة . وقتل كثير منهم وكانت هزيمة المغول عند حمص لا تقل في أهميتها عن هزيمة عين جالوت سيما أن المغول كانوا في ذلك الوقت يرسلون الباي وسلوك أوربا يطلبون التعجيل لإرسال حملة صليبية تقضى على سلطنة مصر . ولتفادي هذه المؤامرة أبرم قلاوون اتفاقاً دافعياً مع أمراء كشتالسة وصقلية^(١) فبهذه السياسة الحكيمة إلى جانب بطولتهم الرائعة في حمص استطاعوا كسر شوكة المغول .

وعاد المغول يهددون الدولة المملوكية من جديد في عهد برقوق^(٢) . فكان رد السلطان برقوق رداً عنيفاً وذلك يتضح لنا من رده على رسالة وصلت من ملك التتار وهذه مقتطفات من نص الخطاب بإنشاء ابن العمري ونشحته بعد البعدين والإصدار " نحن خيولنا برقية وسها منا يمانية وسيوفنا شديدة المضارب ذكرها في المشارق والمغارب . إن قتلناكم

(١) انظر / د . محمد رفعت ومحمد حسونه معالم تاريخ العصور الوسطى المطبعة الامير بيولاقي .

(٢) برقوق : بن أبيخ العثماني الحيركسي اشعراة الاتاكي بليغا العمري ومات بليغا وهو من صفار مالكية وانما سعى برقوق ليجوز عينية وانتقلت به الاحوال أن صار أمير مائه مقدم وكان اتاكا تلك الصالح وليس للصالح سوى الاسم لصغر سنن وخلع الصالح وتولى هو مكانه في التاسع عشر من رمضان سن ٧٨٤ هـ " القرمانى اخيار الاول وآثار الاول ص ٣٠٨ .

فَنَعْمَةُ الْبِضَاعَةِ وَإِنْ قَتَلْنَا فَبَيْنَنَا وَبَيْنَ الْجَنَّةِ سَاعَةٌ ^(١) وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْغُونَ
 قَتْلَكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ^(٢) وفي ذلك
 تصميم على مواصلة مسيرة الجهاد حتى النصر أو الشهادة .

ثانيا : الجهاد ضد الصليبيين :-

سنحدث فيما بعد حديثا مفصلاً عن الجهاد الماليك ضد الصليبيين
 ونود أن نشير هنا في تلك الكلمة الموجزة أن انتصار الماليك في موقعة
 عين جالوت حقق لدولة سلاطين الماليك الناشئة مكانة لا يستهان بها
 في نفوس المعاصرين ، مادعم نفوذها ^(٣) في بلاد الشام وألقى على
 أهلها مهمة إتمام ما قام به صلاح الدين الأيوبي . ونجح سلاطين الماليك
 في استرداد ما اغتصبه الصليبيون وقد كان في وسع الماليك أن يعجلوا
 بطرد الصليبيين ، ولكن عاملاً مهماً أتاح لهم البقاء في الشام حوالى
 أربعين سنة بعد سقوط بيت المقدس ^(٤) وذلك بسبب زحف العدو المغولي
 على العالم الإسلامي . فبعد هزيمة المغول في عين جالوت تحول الماليك
 إلى الصليبيين وأهم سلاطين الماليك الذين كان لهم دور بارز في الجهاد ،
 ضد الصليبيين السلطان الظاهر بيبرس وقلًاوون والأشرف خليل بن قلاوون

(١) المرجع السابق القرمانى ص ٣٠٨ .

(٢) سورة آل عمران آية ١٦٩ .

(٣) انظر د / على سيد على : القدس في العصر المملوكي ص ١٥٨ دار
 الفكر للدراسات والنشر .

(٤) انظر د / احمد شلبي : موسوعة التاريخ الاسلامي ج ٥ ص ٢٨٥ ،
 مكتبة النهضة ص ١٩٩٠ .

حيث استطاعوا أن يجلبوا الصليبيين من بلاد الشام .

ثالثا : جهاد المماليك مع البقايا الصليبية في الشرق :-

المماليك وأرمينيا الصغرى :-

كان العداء بين المماليك والأرمن في حقيقة أمره سلسلة من العداوات بين القوى الإسلامية والمسيحية زمن الحروب الصليبية نفسها . وطلب الظاهر بيمرس أن يكون نهر جيحون حدا بين المسلمين والأرمن وأن يسلم كـل ما هو جنوبي نهر جيحون من الحصون والبلاد . فأجاب الأرمن وتسلم المسلمون جميع البلاد التي جنوبي نهر جيحون والمذكور وضها حمص وتل حمدون وقويدى ومرعشى وغيرها . ولكن آلت أمور هذه البلاد إلى الأرمن عند دخول (قازن) ملك التتار (١) .

فقاد حركة الجهاد السلطان المنصور قلاوون الذي هاجم إبياس في سن ١٢٨٣ وأنزل الهزيمة بالأرمن عقب الهزائم المتلاحقة التي نزلت بهم على أيدي الأرمن وأبرمت معاهدة ودفع للأرمن جزية سنوية فحسدت أن قطعوا تلك الجزية في عهد الأشرف خليل بطل عكا حتى يادربا رسال رسالة إلى هيثم الثاني هلك أرمينيا يخبره بفتح عكا .

وطلب منه أن يعتبر بما حل بعكا وإلا ندم حيث لا ينفع الندم (٢) . وعزم

(١) انظر / بن الغدا : المختصر في أخبار البشر ج ٤ ص ٢٧ .

(٢) انظر / سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ص ٢٦٢

مشرقة في تاريخ الجهاد الاسلامي في العصور الوسطى ج ٢ ص ٢٦٢

مكتبة الانجلو المصرية ١٩٨٦ ص ٣

على استعادة الأراضي التي نزلوا عنها للمماليك . وفي عهد الناصر محمد بن قلاوون أرسل حملة س ١٣٣٦ م وظلت هذه الحملة تعمل في الأراضي الأرمنية حتى وافق الأرمن على التنازل عن جزر كبير ومع ذلك لم تنقطع غزوات المغول في أرمينيا الصغرى بقية القرن الرابع عشر حتى استطاع الأشرف شعبان أن يقضى قضاء تاما على دولة أرمينيا^(١) وبعد القضاء على أرمينيا أصبحت قبرص أهم المعاقل الصليبية وأقواها . حيث أصبحت ملجأ للشركاء الفارين الصليبيين كما أصبحت هذه الجزيرة ملجأ للقراصنة ولأعداء الإسلام وهاجمت سواحل مصر فزحف جند السلطان (بارساي) وهاجموها واستولوا عليها س ٨٣٠ هـ - س ١٤٢٦ م وقيت الجزيرة تحت حكم مصر تدفع الجزية^(٢) وحاول أهل جزير (بودس) مناصرة أهل قبرص ولكن تصدى لها السلطان حقق وهاجمها ثلاث مرات مما أسكتها وبذلك نجد أم المماليك كان بمثابة الدماء الجديدة التي تتطلبها الجبهة الإسلامية في ذلك العصر . فكانوا مدافعين عن البلاد الإسلامية دفاعا عظيما حيث اشترك السلاطين في هذه المعارك وجاهدوا جنبا إلى جنب مع جنود فكانوا قدوة صالحة للعامة ما جعلهم يشاركون في تلك المعارك تطوعا وجهادا في سبيل الله .

(١) المراجع السابق .

(٢) انظر د / أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الاسلامي ج ٥ ص ٢٦٠

مكتبة النهضة س ١٩٩٠ .

الفصل الثالث

الفتوحات الإسلامية في العصر المملوكي
وأثرها في خدمة الدعوة الإسلامية

* الفصل الثالث *

الفتوحات الإسلامية في العصر المملوكي وأثرها في خدمة

الدعوة الإسلامية

تتصف دولة سلاطين المماليك في مصر والشام بأنها دولة حربية نشأت وترعرعت وليدة الحروب الكثيرة التي هددت منطقة الشرق الأدنى في العصور الوسطى واستخدمت هذه الدولة بقاعها ونظمها من ذلك الجهاد المسلح ضد الأعداء^(١). فقد تعرضت الأمة الإسلامية في ذلك الوقت لأخطار عديدة أهمها الخطر المغولي وقد سبق الحديث عنه في فصل لاحق والخطر الصليبي . حيث استولى الصليبيون على بلاد الشام وثغور مياط وأقاموا مستعمرات لهم في قلب الدولة الإسلامية . وقد انشغل المماليك في الدفاع عن البلاد الإسلامية في بادئ عهدهم ضد المغول وما أن انكسرت شوكة المغول حتى تحولت راية الجهاد إلى العدو الصليبي وسنتناول بالدراسة أهم الفتوحات الإسلامية في عصر سلاطين المماليك وأثرها في الدعوة الإسلامية . فقد كانت حياة سلاطين المماليك مسخرة لخدمة الدعوة الإسلامية خلال حماية الدولة الإسلامية واستردادها ما اغتصبه الأعداء :

أولا : أهم الفتوحات الإسلامية في عهد الظاهر بيبرس :-

الملك الظاهر بيبرس البندقدارى كان ملكا جليلا عظيما مشهورا بالشجاعة والإقدام^(٢) فتح قلعة البيرة، الكرك والشوبك وقيسارية وقلعة الهوى . وصد وقلعة بانياس ويافا والشفيق ومدينة أنطاكية وسائر حصون الإسماعيلية وحصن

(١) انظر د / محمود رزق سليم : عصر سلاطين المماليك ج ٤ ص ٥ القاهرة

١٩٦٠ .

(٢) القسمراني : تاريخ الدول وانا الاول ص ١٩٩ .

الأكراد وحصن عكار وكنبول والمصيصة وتدل كثرة الفتوحات في عهد الظاهر بيبرس على علو خلقه وحبه للإسلام وأهله . فقد قال عنه صاحب كنز الدر :
 "إن بيبرس كان ملكا هاما شجاعا مقداما لا يرهب الموت كثير الحيل حسن السياسة ، جميل التدبير . ميمون الحروب مؤيد العزم وقال عنه أحد المؤرخين (١)
 "إن عهد بيبرس كان كمعهد الرشيد وصلاح الدين أحد عصور الإسلام الذهبية"
 وكان الظاهر بيبرس حريصا على نشر الدعوة الإسلامية من خلال فتوحاته فشيّد المساجد وأقام بها الدعاة . وسنورد أهم الفتوحات في عهده .

١ - فتح قيسارية الشام :

نازلها الملك الظاهر بيبرس وحاصرها لمدة ستة أيام وفتحها في منتصف شهر جمادى الأولى ٦٦٣ هـ / ١٢٦٥ م واستولى عليها المسلمون وهرب الصليبيون وأسلموا القلعة (٢) بما فيها وهي أول فتوح الملك الظاهر رحمه الله وكان فتح (قيسارية) هملا على جانب كبير من الأهمية . فقد أخلى الفرنجيسة عن حصن منيع على الساحل الجنوبي لبلاط الشام وكان يهدد المواصلات الإسلامية بين مصر والشام (٣) وبذلك استراح المسلمون من تهديد الفرنجيسة لجارتهم .

(١) انظر ابن ابيك : كنز الدر ج ٨ ص ٢١٤ .

(٢) انظر / المصينى : عقد الجمان ج ١ ص ٣٦٧ - الهيئة المصرية

العامة للكتاب ص ٨٩ .

(٣) انظر / طه التلجى : ملكة صفد في عهد المماليك ص ٤٦ .

٢ - فتح أرسوف^(١) :

نزل السلطان على أرسوف في مستهل جمادى الآخرة من نفس السنة واشتد هجوم المعسكر بالسهام والمجانيق وضيقوا عليهم . فما أحس الفرنج إلا أن خالطهم المسلمون . وكان فتحاً مباركاً فقد حضر في هذا الفتح جمع كبير من العباد والزهاد والفقهاء . ولم يعد فيها خمر ولا شيء ومن الفواحيش فكانت النساء الصالحات يسقين الماء في وسط القتال^(٢) وفي ذلك نفع عظيم للدعوة الإسلامية . حيث إن الدعوة إلى الله بالقُدوة الحسنة أعظم شأنًا في نفس المدعوين من الكلمة . واشترك القائد بيبرس في هذا العمل بنفسه فقد سجل التاريخ لبيبرس أنه في أثناء الحصار الذي فرضه على أرسوف الصليبية في سنة ٦٢٣ هـ . كان يتقلد الأحجار بنفسه ويمشي بمفرده في يده ترس تارة في السرب وتارة في الأبواب التي تفتتح ليرمي العدو من فوق الستائر .

٣ - فتح صفد^(٣) :

نزل الملك الظاهر بيبرس بجيشه على صفد في شعبان سنة ثلاث وستين

- (١) أرسوف بالفتح ثم السكون ، وضم السين المهملة وسكون الواو . والقاء مدينة على ساحل بحر الشام بين قيسارية ويافا وكان بها خلعه من المراكبيين منهم أبو يحيى ذكريا بن نافع الأرسوفي وغيره وهي فسي الاقليم الثالث (ياقوت الحموي) ج ١ ص ١٥١ : ١٥٢ .
- (٢) المقرئ : السلوك ج ١ ص ٥٩ القاهرة سنة ١٩٧٠ .
- (٣) انظر / حامد غنيم أبو سعيد : الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية ج ٣ ص ٢٧٢ .
- (٤) صفد : صفد بالتحريك ، والصفد : العطاء وكذلك الوثاق وهي من حبال لبنان (ياقوت الحموي) : معجم البلدان ج ٣ ص ٤١٢ .

وستائة هجرية وما يقها بالزحف وآلات الحصار فسلموا الباشورة^(١) واستولى عليها
وفتحها في التاسع عشر من شعبان سنة ٦٦٣ هـ وعمر فيها جامعاً^(٢) وكان سلاطين
المعاليك يصطحبون مع الجنود الصالحين والعلماء وحضر قاضي قضاة الحنابلة
بدمشق^(٣) ذلك الفتح . وسادت الروح الإسلامية واشترك العامة تطوعاً فسي
سبيل الله . وأحسنوا القتال ما سهل فتحها .

تعمير صدد :

تعرضت صدد إلى أضرار جسيمة خلال فترة الحصار التي انتهت بعودتها
للحاضرة الإسلامية . فنظر الظاهر بيبرس^(٤) إلى مستقبل تلك القلعة في رحلة
جهاده ضد الصليبيين فكان موقعها الحصين دافعاً له ليجعل منها قاعدة
حصينة في المنطقة تشد أزره في صراعه مع الفرنجة^(٥) . ومركزاً تشن منه الهجمات
على البلاد الخاضعة للصليبيين . ووصل السلطان لتعمير صدد في أواخر
رجب سنة ٦٥٦ هـ . ونور وولده قام بتقسيم عمارتها على الأمرأ وأخذ نصيباً
وافراً لنفسه ولعاليكه . وما أن فرغوا من العمارة حتى أمر بحفر خندق مسن

(١) الباشورة : هنا سد من التراب لمنع وصول الخيالة والرحالة والسهم

إلى مواضع المحاربين مع تجمع على بواشير الملوك : ج ١ ص ١٥٠ .

(٢) انظر / العيني : عقد الجمان ج ١ ص ٢٢٢ الهيئة المصرية العامة
للكتاب .

(٣) انظر / د حامد غنيم : الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية ج
٣ ص ٢٧٥ .

(٤) انظر : طه التلجي الطراونه . مملكة صدد في عهد المعاليك ص ٥٢ .

حولها . شارك السلطان المعمل فيه أيضا ويذكر المقرئى لنا دور (بيبرس) فى نشر الدعوة من خلال فتحه لصفد . فقد كتب على القلعة بعد فتحها مصورا إنجازاته فى تلك القلعة * وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ^(١) * أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ^(٢) * .
وأمر بتجديد هذه القلعة وتحصينها وتكملة عمارتها وتحسينها وخلصها من أسر الفرنج الملاحين ، وردّها إلى أيدي المسلمين ، ونقلها من أخوة الكفر إلى أخوة المؤمنين وأعادها إلى الإيمان . كما بدأ بها أول مرة وجعلها للكفار خسارة وحسرة واجتهد وجاهد حتى بدل الكفر بالإيمان والناقوس بالآذان والإنجيل بالقرآن ووقف بنفسه حتى حمل تراب خنادقها وحجارتها^(٣) وفى ذلك وصف جامع الدور بيبرس فى خدمة الدعوة الإسلامية من خلال فتوحاته .

٤ - حملات تاديبيسة :

انطلاقا من قول الله تعالى * وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ^(٤) * توجه الملك الظاهر بيبرس من دمشق حيث التقى بجنود العائدين من غزوة سيس . لما نزل على * قارا * بين دمشق وحمص . أمر بنهب أهلها وقتل كبارهم فنهبوا وقتل منهم جماعة جزا * وفاقا . واقتصاصا منهم

(١) سورة الأنبياء آية ١٠٥ .

(٢) سورة المجادلة من الآية رقم ٢٢ .

(٣) انظر المقرئى : السلوك ج ١ ص ٥٦٣ القاهرة سنة ١٩٧٠ .

(٤) سورة البقرة آية ١٧٩ .

لأنهم كانوا نصارى يسعون في الأرض فساداً ويسرقون الصبية المسلمين ويبيعونهم للفرنج ^(١) فكانت الحملة التأديبية إرهاباً وردعاً للعدو وتعظيماً لحرمة الدم المسلم .

هـ - فتح إنطاكية :

يروى المؤرخون أن بيبرس هاجم إنطاكية ^(٢) بثلاث قوات إحداها بقيادة الأمير بدر الدين الخازندار . اتجهت إلى ميناء السويدية لتقطع الصلة بين إنطاكية والبحر والثانية بقيادة الأمير عز الدين بيفان وسدت الممرات بين قليعية والشام . لمنع وصول إمدادات من أرمينيا الصغرى في حين أخذت القوة الرئيسية بقيادة بيبرس نفسه تجاه المدينة حيث التجأ إلى الخديعة ليعمد الأسطول الإنطاكي عن ميدان المعركة فهاجم طرابلس أولاً فأسرع إلى نجدها بوحمند الثالث بأسطوله وفي هذه اللحظة رحل بيبرس عن طرابلس . وتمكن بذلك من الاستيلاء على إنطاكية ٦٦٦ هـ / ١٢٩٨ م ^(٣) . فلم يكن يجازف سلاطين المماليك بقواتهم . وإنما برعوا في وضع الخطط العسكرية . ونجحوا في ذلك نجاحاً بارعاً . إلى جانب روح الجهاد التي كانت القوة الروحية التي جعلتهم يحققون ذلك النجاح في فتوحاتهم .

(١) انظر / ابن الفداء : المختصر البشري ج ٤ ص ٤٠
(٢) إنطاكية : بالفتح ثم بالسكون والياء مخففة بلد عظيم ذو سور عظيم وشكل البلد تنصف دائرة قطرها يتصل بجبل ، والسور يصعد مسج الجبل داخل السور قلعة مبنية (معجم البلدان ج ١ ص ٢٦٧) .
(٣) انظر / د علي إبراهيم حسن : البحرية في عصر سلاطين المماليك ص ٢٥٣ النهضة المصرية ١٩٦٧ .

٦ - فتح حصن الأكراد وحصن عكار والقرين :

توجه الظاهر بيبرس من الديار المصرية إلى الشام . ونازل حصن الأكراد في التاسع من شعبان سنة ٦٦٩ هـ . وجد في حصاره واشتد القتال عليه وملكه بالأمان في شعبان من نفس السنة . ثم رحل إلى حصن عكار ونازله في السابع عشر من رمضان من هذه السنة . وجد في قتاله وملكه بالأمان في رمضان المذكور^(١) وقيل في فتح عكار .

يا ملك الأرض بشير اك فقد نلت الإرادة

ان عكـار ايقينا هي عكـار وزيـادة

وكان هذا الحصن شديد الضرر على المسلمين^(٢) فأراحهم الله بفتحه وفيها تسلم قلعة القليعة وبلادها من الإسماعيلية . واستولى على حصن القرين وتسلم نواب الملك الظاهر بيبرس ما تأخر من حصون الاسماعيلية^(٣) . وبذلك استطاع الظاهر أن يقضى على فرقة الاسماعيلية التي كانت بلا على الاسلام والمسلمين . فقد كانت حياته رحمه الله سلسلة من الجهاد المتواصل فقد ذكر أنه فتح في عهده أربعة حصونا كانت مع الفرنج^(٤) .

(١) انظر ابن الفدا : المختصر في أخبار البشر ج ٤ ص ٤ .

(٢) انظر المعين عقد الجمان ج ٢ ص ٧٧ الهيئة المصرية العامة

سنة ١٩٨٩ .

(٣) انظر المرجع السابق .

(٤) انظر الذهبي : شذرات الذهب ج ٥ ص ٣٥٠ .

ثانيا : أهم الفتوحات الإسلامية في عهد السلطان قلاوون :

الملك السلطان سيف الدين قلاوون كان ملكا عظيما والخير ما شهد بهه الأعداء * . حيث يقول السيد وليم مؤيد عن السلطان قلاوون أنه كان * ملكا عاقلا ، جوادا محبا للخير وقد حمد له مؤرخونا عصره لينه وحلمه وعد له والحق أنه جدير بهذا الحمد * (١)
وأهم فتوحاته : فتح المرقب وفتح طرابلس .

١ - فتح المرقب :

خرج السلطان الملك المنصور من دمشق بالعساكر المصرية والشامية متجها إلى المرقب (٢) ونازلها في أوائل ربيع الأول ٦٨٤ هـ وهو حصن في غاية العلو والحصانة . ولشدة حصانته لم يطمع أحد من الملوك الأوائل في فتحه (٣) ويروى لنا الملك المؤيد في تاريخه هذا الحدث فيقول * " اني حضرت حصار الحصن المذكور وعمرى ان ذاك نحو اثنتي عشرة سنة وهو أول قتال رأيته وكنت مع والدي * . وطلب أهل الحصن الأمان فأجابهم السلطان وتسلمه في الساعة الثامنة من يوم الجمعة التاسع عشر من ربيع الأول من سنة أربع وثمانين وستائة (٤) . وأمر بالإبقاء عليه لحصانته وسناعته وربت فيه حامية قوية من المالك * واستورد قلاوون حصن مرقية من الصليبيين (٥) .

(١) انظر / وليم مؤيد : تاريخ دولة المماليك البحرية في مصر ص ٦٠ : ٦١ الممارف - القاهرة .

(٢) المرقب : بلد وقلعة حصينة تشرف على ساحل بحر الشام وعلى مدينة بانيس .

(٣) العيني : عقد الجمان ج ٢ ص ٣٣٨ الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٨٩ .

(٤) ابن الفداء : المختصر في أخبار البشر ج ٤ ص ٤١ .

(٥) انظر / د السيد عبد العزيز سالم . طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي ص ٢٨٦ .

٢ - فتح طرابلس :

يحاول الظاهر بيبرس مهاجمة طرابلس سنة ٦٦٩ هـ / ١٢٧٠ م ويعتد أن استولى على حصن الأكراد قصد السلطان بيبرس طرابلس وأحاطوا بطرابلس إحاطة البهالات بالأقمار . وعقد هدنة مع حكام طرابلس لمدة عشر سنوات إلا أن السلطان قلاوون شرع في فتح طرابلس بسبب نقض حكام طرابلس الهدنة التي كانت مبرمة بينهم وبين السلطان بيبرس وذلك بأنهم اعتدوا على التجار المسلمين رغم تعهدهم بالألا يتعرضوا له ولا يقطعوا الطريق على سافريهم . فصار قلاوون إلى طرابلس على رأس قوات من الفرسان والمشاة^(١) فوصل إليها يوم الجمعة في سبتهل ربيع الأول سنة ٦٨٨ هـ وحاصرها حصاراً شديداً فلما كان يوم الثلاثاء الرابع من جمادى الآخرة فتحت طرابلس بالقوة وقد كانت طرابلس في أيدي الفرنج من سنة ثلاث وخمسة^(٢) هجرية إلى أن فتحت في سنة ثمان وثلاثمائة وست هجرية . وأحدث سقوط طرابلس في أيدي المسلمين دوا هائلاً . خفقت له قلوبهم في سائر أنحاء العالم الإسلامي ، وكتب البشائر إلى الأتقي بهذا النصر المبين^(٣) . وعزم الملك قلاوون على فتح عكا حيث جهز جيشه ولكن المنية

(١) المعينى : عقد الجمان ج ٢ ص ٣٣٨ الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٨٩ .

(٢) انظر / د . علي ابراهيم حسن : تاريخ المماليك البحرية ص ٢٥٣ -

النهضة المصرية سنة ١٩٦٧ .

(٣) انظر / ابن الفداء : المختصر في أخبار البشر ج ٤ ص ٢٣ .

(٤) انظر / د . السيد عبد العزيز سالم : طرابلس في الشام في التاريخ

الإسلامي ص ٢٩٤ .

عاجلته في الطريق . فأكمل المسيرة بعده ابنه الأشرف خليل .

ثالث : أهم الفتوحات الإسلامية في عهد الأشرف خليل بن قلاوون :

هو السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن السلطان الملك المنصور قلاوون الصالح النجمي الألفي . قتل في الثالث عشر من محرم ٦٩٣ هـ وكانت مدة سلطنته ثلاث سنين وشهرين وأياما وكان شجاعا عالى الهمة . فتحت في عهده عكا والسواحل وقلعة الروم وسهينسى ومرعش وغير ذلك ^(١) .

١ - فتح عكا :

في سنة ٨٦٦ هـ - سقط الوجود الصليبي في إنطاكية وفي سنة ٦٨٨ هـ سقطت طرابلس ومن ثم أصبح الوجود الصليبي في عكا ، أو في الجنوب هو الغاية التي عدت كل جهود الجبهة الإسلامية موجبة إليه . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى . فقد سجل التاريخ عن صليبي عكا . أنهم في شعبان ٦٨٩ هـ ثاروا على التجار المسلمين وقتلوه ^(٢) . وعندما وصلت هذه الأنباء إلى السلطان قلاوون وطلب من الصليبيين تسليم المجرمين إليه فورا فعقد الصليبيون مجلسا واتخذوا قرارا بتسليم المجرمين إلى قلاوون ليسكن غضبه ولكن ذلك القرار تعارض مع الرأي العام المسيحي الذي رفض ذلك القرار بشدة وإذا ضغط الرأي العام المسيحي ^(٣) قدم حكام عكا تبريرات واهية محتواها أن العدو ان أتى

(١) انظر / العيني : عقد الجمان ج ٣ ص ٢٠٧ الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٨٩ .

(٢) انظر / د . حامد غنيم أبو سعيد : الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية ج ٣ ص

(٣) انظر د . سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الاسلامي في العصور الوسطى ص ٩٣٢ - دار الفكر العربي ١٣٦٥ هـ .

به صليبيون أجانب . وأن الحكومة غير مسئولة عن ذلك الحادث ولكن هذه الأعداء الواهية لم تكن كافية لشهدة غضب السلطان قلاوون الذي جهز الجيش لفتح عكا ولكن المنية عاجلته في الطريق . وهو بذلك يذكرنا بالخليفة المعتصم الذي جهز جيشا من أجل امرأة سلمة استفاشت به . وأننا في عصرنا الحاضر لقي أشد الحاجة إلى حاكم مثل هؤلاء الحكام . حيث دما المسلمين تنتهك في كل مكان ولا يحرك ذلك هاجنا لدى حكامنا سوى التديد والاستنكار .

وأخذ السلطان الأشرف خليل علي عاتقه مهمة والده في القضاء على الصليبيين فجهز الجيش ونودي في دمشق للجهاد في سبيل الله لفتح عكا فخرج الجميع من العامة والفقهاء والمدرسين والصالحين^(١) . ملين نداء الجهاد ونزل السلطان بجيشه عند عكا فوجدها قد حصنت بسائر العدد والآلات وكانت الفرنج قد استنجدوا بأهل قبرص وغيرها من البلاد وأرسلوا إلى ملوك الإفرنج مع الرهبان والقساوسة مبينين لهم أنه لم يبق حصن من حصون الفرنج يأسوون إليه في جميع السواحل غير هذا الحصن وأنه متى أخذ لا يبقى لسائر الإفرنج مكان يذكرون فيه فأجابوا على طلبهم بتزويدهم بجيش قوى ودارت بينهم وبين المسلمين مناوشات قرأوا من المسلمين ما ليس بحسبانهم فامتنعوا عن القتال وصاروا يدافعون دون أن يهجموا فحاصرها الأشرف خليل وشدد الحصار وقاتل من بها مدة أربعين يوما حتى فتحها عنوة^(٢) . وقبل قتل ما يزيد

(١) انظر / ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ٣٢٠ دار الفكر العربي .

(٢) البغدادى : الحوادث الجامعة ص ٤٧٠ - المكتبة العربية .

على عشرة آلاف نفس وتسلمها المسلمون بعد أن ظلت في أيدي الصليبيين مائة عام . وكانت معركة عكا هي الحاسمة في فصل الصراع بين الصليبيين والجيبة الإسلامية .

٢ - نهاية الصليبيين بالشام :

* لما فتحت عكا ألقى الله تعالى الرعب في قلوب الفرنج ، الذين بساحل الشام^(١) . فاحتل الماليك مدينة هور دون مقاومة بعد أن تركها نائب الملك هنري الثاني وفر إلى قبرص .

أما صيدا فقد فر منها أهلها عند اقتراب الأمير الشجاعى ، فاستولوا عليها الماليك ود مروا قلعتها في سنة ٧٠٢ هـ - سنة ١٢٩١ م . وكذلك احتل الماليك مدينة حيفا وهدموها وبذلك لم يبق للصليبيين بالشام سوى موضعين هما انظرطوس وعثليت . وكان هذان الموضوعان تابعين للبراوية واستلمت الأولى في ثلاثة أغسطس والثانية في أربعة عشر أغسطس سنة ١٢٩١ م سنة ٧٠٢ هـ . وبذلك تكاملت بهذه الفتوحات جميع البلاد الساحلية للإسلام وهكذا أزال دولة الصليبيين بالشام وتخلص المسلمون من أولئك الغزاة الغربيين إلى حيث لا رجعة^(٢) . وعادت الأراضي الإسلامية إلى أهلها على أيدي

(١) ابن الفدا : المختصر في أخبار البشر ج ٤ ص ٢٦ .

(٢) انظرطوس : بلد من سواحل بحر الشام وهي آخر أعمال دمشق من

البلاد الساحلية وأول أعمال حمص . معجم البلدان ج ١ ص ٢٧٠ .

(٣) انظر / د . سعيد عبد الفتاح عاشور - الحركة الإسلامية صفحة مشرفة

في تاريخ الجهاد الاسلامي ص ٩٣٦ .

سلاطين المماليك الذين حملوا لواء الزعامة في العالم الإسلامي وأخذوا على عاتقهم مهمة طرد الصليبيين من الأراضي المقدسة التي تعتبر جزءاً لا يتجزأ من الشرق العربي وقد تم لهم ما أرادوا في أقل من نصف قرن من قيام دولتهم^(١). والحق كما قال الدكتور عبد المنعم ماجد * أنهم برعوا في الفنون الحربية ، بحيث كانوا سادة يسودون الممالك وقادة يجاهدون في سبيل الله ، وأهل سياسة ببالغون في إظهار الجميل ويردعون من جار أو تعدد^(٢) .

ونختتم حديثنا عن الفتوحات الإسلامية بإلقاء نظرة إلى ما يترتب على تلك الفتوحات من نتائج .

نتائج الفتوحات الإسلامية في عصر سلاطين المماليك :

١ - حماية الدولة الإسلامية من التمزق والضعف : أحيا سلاطين المماليك الخلافة الإسلامية فكانت رمزا لوحدة المسلمين . مما جعل لدى المسلمين الانتماء إلى العالم الإسلامي عامة وليس إلى قطر بعينه وذلك نراه واضحاً في اتحاد المسلمين عند تعرضهم لخطر خارجي . ولعل أصدق تعبير عن ذلك ما حدث في سنة ٦٨٠ هـ حيث تعرضت الجبهة الإسلامية لهجوم كبير من قبل مغول فارس . وفي هذا الظرف الرقيق برزت الرابطة الدينية كأقوى ما يكون اليوم . فقد توافدت إلى الميدان مختلف قوى

(١) انظر / د . أحمد شلبي : الحروب الصليبية بدوها مع مطلع الإسلام

واستمرارها حتى الآن . ص ١٩١ - دار النهضة المصرية سنة ١٩٨٦ .

(٢) انظر / د . عبد المنعم ماجد : طومان باي آخر سلاطين المماليك

ص ٢٦ - مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٨ .

الجبهة الإسلامية من أجل التصدي للفرقة . ومن ناحية أخرى احتشد جمع عظيم من المسلمين في الجامع الأموي بدمشق . وتضرعوا إلى الله وضجوا وبكوا وحملوا المصحف العثماني من الجامع إلى المصلى خارج البلد وهم يسألون الله النصر على الأعداء . وفي مصر كان أهلها يفتنون في صلواتهم وكثرة قراءة صحيح البخاري وأقبل الناس على تلاوة القرآن . وتجمعوا في المشهد الحسيني وفي المساجد وكثر ضجيجهم ودعائهم^(١) . فكانت الخلافة هي السياج الحامي للأمة الإسلامية التي تجتمع عليه ويقول الله تعالى : **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ**^(٢) ويقول أيضا : **وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**^(٣) . وسعى سلاطين المماليك إلى استرداد ما اغتصبه الصليبيون فأعادوا للأمة الإسلامية مجدها فقد أصبحت في ذلك العصر قوية الشوكة فهابهم ملوك العالم وفي ذلك يذكر لنا ابن تيمزي الحوادث العديدة التي تؤكد ذلك بالنسبة للسلطان الظاهر بيبرس منها : أن تواقيعه التي كانت بأيدي التجار المترددين إلى بلاد القيقاق بإغاثتهم من الصادر والوارد كان يعمل بها حيث خلو من مملكة باركف خان ومنكوتر

(١) انظر / د . سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية صفحة مشرفة

في تاريخ الجهاد الاسلامي ص ٩٣٢ - دار الفكر العربي ١٣٦٥ هـ .

(٢) سورة النحل آية رقم ١٢٨ .

(٣) سورة الحج آية رقم ٤٠ .

وبلاد فارس وقارصان^(١) . وعندما طلب السلطان قلاوون استلام المجرمين الذين اعتدوا على التجار المسلمين بعكا . كان رد الصليبيين أن عقدوا مجلسا لبحث الأمر ، واقتراح مقدم الداوية وهو بمثابة المسئول عمن العمليات العسكرية أن يبادر الصليبيون بالقبض عليهم وتسليمهم لقلاوون فوراً . فسمعهم يخشون رد فعل السلطان قلاوون لمكانته ونفوذه ولتسه في ذلك الوقت ونجح سلاطين المماليك في تحرير الأراضي الإسلامية والحفاظ عليها واستبدال شعائر الكفر بشعائر الإسلام . ونتيجة لتلك الانتصارات أن ألقى الرعب في قلوب الأعداء وخير مثال لذلك بلاد الأرمن حيث ضعفت شوكتهم وسعوا إلى طلب الهدنة مع سلاطين المماليك .

٢ - حماية المسلمين من الفتن : ارتكب الصليبيون الجرائم البشعة ضد المسلمين من قتل وتخريب هذا إلى جانب التضييق على المسلمين في حياتهم مما جعل المسلمين عرضة للفتن . فمن الله على المسلمين بأن وفق سلاطين المماليك في فتوحاتهم فعمشوا في عزة ومأمن على أنفسهم ودينهم .

٣ - نشر الدعوة الإسلامية : شيد سلاطين المماليك المساجد للبلاد التي فتحوها وعينوا الدعاة واهتموا بتصحيح المفاهيم الإسلامية . حيث قصد شوهرت بمعرفة أهل الصليب والحاقد بين على الإسلام فكان من نتائج ذلك

(١) ابن تغرى - النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٨٢ - المؤسسة المصرية العامة .

أن وجد مسلمون يتشبهون بالفرنجة حتى أنه يذكر أن المسيحي كان يتزوج بمسلمة . فلا حول ولا قوة إلا بالله : فكان ولا بد أن تعاد الموازين إلى نصابها ونشر علماء العصر المملوكي في ذلك الوقت وهم كثرة الدعوة الإسلامية الصحيحة هذا إلى جانب القدوة الحسنة التي نتجت من سلوك القادة فكانت دافعاً لدخول كثير في الإسلام . فقد كثر عدد المغبول الذين أسلموا ووفدوا إلى مصر في عهد بيبرس وأكرمهم وعرفوا بالوافدين^(١) وحدث في سنة ٦٩٤ هـ أن وصل الرحبة جنود كثيرة نحو عشرة آلاف جندى من جنود بيدو ملك التتار طالبيين الدخول في الإسلام فأرسل الملك العادل كتاباً إلى الأمير علم الدين سينجر لا استقبالهم وحسن إسلام هؤلاء القوم على أيدي سلاطين المعاليك .

(١) انظر / د . أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الاسلامي - مكتبة النهضة

الفصل الرابع
أبرز علماء العصر المملوكي
وأثرهم في نشر الدعوة الإسلامية

٩٣
* الفصل الرابع *

أبرز علماء العصر المملوكى

وأثرهم فى نشر الدعوة الإسلامية

نخرا العصر المملوكى بعلماء نبغوا فى مختلف الميادين . وأصبحت
مصر فى ذلك العصر كعبة العلماء فلقد نبغ فيها طائفة من فطاحل العلماء
والأدباء والشعراء .

(فالقلقشندى) صاحب (صبح الأعشى) والأبشنهى صاحب (المستطرف) وابن
منظور صاحب (لسان العرب) ، وابن هشام النحوى العظيم الذى بلغ
من النحو شأنا عظيما ، وابن عبد الظاهر ، وشمس الدين السخاوى صاحب
الضوء اللامع ، وابن خلكان المؤرخ المشهور صاحب (وفيات الأعيان) ،
والصفدى صاحب (الوافى) ، وابن حجر المؤرخ إمام الحفاظ والمحدثين فى
زمانه ، والعيني المؤرخ والمحدث ابن وصيف .

والمقريزى صاحب (الخطط والسلوك) ، وأبو الفدا المؤرخ الجغرافى
المشهور صاحب (تقويم البلدان) ، والنويرى صاحب (نهاية الأرب فى فنون
الأدب) ، وابن فضل الله العمري صاحب (سالك الألبار فى ممالك الأقطار)
وابن تعزى بردى صاحب (النجوم الزاهرة) وجلال الدين السيوطى صاحب
التأليف الشهيرة فى التفسير والعلوم والتاريخ والأدب واللغة . وابن
إياس المؤرخ الذى أدرك الفتح العثمانى صاحب (بدائع الزهور فى وقائع
الدهور) واستضافت^(١) مصر فى ذلك العصر المملوكى جماعة من أفهم العلماء
والفلسفة فى الشرق كالإمام ابن تيمية وابن قيم الجوزية وفيلسوف المؤرخين
ابن خلدون . كما وجد علماء فى الطب أمثال ابن أبى أصيبعية صاحب

(١) أنظر / راسم رشدى : مصر والشراكسة ص ١٣١ ، ١٣٢ - القاهرة

كتاب (عيون الأئمة) في طبقات الأطباء) وعلى بن النغيص رئيس الأطباء. فسي
 مستشفى^(١) السلطان قلاوون وسنلقى الضوء على أشهر علماء ذلك العصر
 من خلال دورهم في خدمة الدعوة الإسلامية من خلال علاقتهم بحلاطين
 الدولة المملوكية

(١) أنظر د / أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الاسلامي ج ٥ ص ٦٤١ -

١ - العزّين عبد السلام

مولده ونشأته :-

العزّين عبد السلام * هو الشيخ الإمام العلامة عز الدين بن عيسى السلام بن أبي القاسم الحسن بن محمد بن المهذب أبو محمد السلمسي الدمشقي الشافعي^(١) شيخ المذهب ، ومفيد أهله . ولد سنة سبع أو ثمان وسبعين وخمسائة وكانت وفاته في العاشر من جمادى الأولى من سنة ٦٦٠ هـ وقد نيف على الثمانين ودفن بسفح جبل المقطم ، وحضر جنازته الملك الظاهر بيبرس وخلق من الأئمة .

أثره في نشر الدعوة الإسلامية :-

يعتبر العزّين عبد السلام من العلماء الذين عاصروا الدولتين الأيوبيه والسلوكية وكان سبب خروجه من الشام رحمه الله إنكاره على الصالح إسماعيل تسليمه صفد والثقيف إلى الفرنجة^(٢) . وأخرج من بلده بسبب ذلك فقام كان قويا في الحق مجاهدا في سبيل الله لا يخشى في الله لومة لائم وصار ابن عبد السلام إلى الملك الصالح أيوب بن الكامل عا حبا مصر فأكرمه وولاه قضاء مصر وخطابة الجامع العتيق ثم انتزعهما منه وأقره على تدريس الصالحية . وكان رحمه الله يحث المسلمين في خطبه على الجهاد

(١) المعنى : عقد الجمان ج ١ ص ٢٣٨ - الهيئة المصرية العامة

للكتاب ١٩٨٩ .

(٢) أنظر / ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٣٦ - دار الفكر العربي

في سبيل الله ويهاجم السلاطين إذا رأى منهم منكراً . ويذكر أن السلطان سيف الدين قطز تلمز على يديه . وكان نتيجة ذلك أن كان قطز متفانياً في خدمة الإسلام وأهله .

وللعزيم عبد السلام مواقف بطولية رائعة فقد كان له نفوذ قوى لدى السلاطين . ومن تلك المواقف نذكر : حين أراد الملك المظفر قطز الخروج لقتال التتار بالشام ، وأراد أن يجهز الجيش ولم يجد ما يكفيه . فاحتاج إلى المساعدة بشئ من أموال الرعية . لمواجهة العدو والمفولى بقوة تكسر شوكة . فجمع القضاة والفقهاء لاستشارتهم في هذا وطلب الموافقة على ما عزم عليه . فسكت من كان في المجلس إلا الشيخ عز الدين الذي قال : "إذا طرق العدو وبلاهم الإسلام وجب على الحاكم قتالهم وجاز لكم أن تأخذوا من الرعية ما تستعينون به على جهادكم بشرط . ألا يبقى في بيت المال شئ من السلاح والعروج الذهبية والفضة والكبابيش المزركشة وأسقاط السيوف والفضة وغير ذلك وتبيعوا مالكم من الحوائض الذهبية لللالى النفيسة . فيقتصر كل الجند على سلاحه ومركبه ويتماواهم والعمامة أما أخذ الأموال من العامة مع بقايا في الجند من الأموال وللآلات الفاخرة فلا" (١) .

وأصبحت تلك الفتوى نموذجاً للقياس فيما بعد العصر المملوكي وبلغ من مهابة الشيخ عز الدين في قلوب السلاطين والأمراء أنه لما توفى سنة ٦٦٠ هـ حضر الجنازة خلق كثير وحضرها الظاهر بيبرس والمملوكاء ،

(١) ابن تغرى : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٧٢ - المؤسسة المصرية العامة .

فقال لبعض خواصه * اليوم استقر أمرى فى الملك *^(١) لأن هذا الشيخ لو كان يقول للناس : اخرجوا عليه لانتزع الملك منى . هذا إلى جانب إسهامه فى خدمة الدعوة بعلمه لقد جمع علوماً كثيرة وأفاد ودرس وله مصنفات حسان منها . التفسير ، واختصار النهاية ، والقواعد الكبرى والصغرى وكتاب الصلاة والفوائد العملية^(٢) وغير ذلك .

(١) انظر / السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٧٤ - مطبعة الموسوعات .

(٢) انظر العيىنى : عقد الجمان ج ١ ص ٣٣٨ - الهيئة المصرية العامة

للكتاب ١٩٨٩ .

٢- ابن تيمية

مولده ونشأته :-

وهو * أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الخضري بن علي بن عبد الله ، شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس ابن أبي المحاسن . شهاب الدين بن أبي البركات مجد الدين الحراني الأصل والمولد دمشق الدار والوفاة الحنبلي المعروف بابن تيمية^(١) الإمام العلامة الحافظ الحجة فريد دهره مولده بحران في يوم الإثنين عاشر شهر ربيع الأول سنة إحدى وستين وستائفة من الهجرة .

نشأ الإمام في بيت علم وفضل وتربى في أحضان مدرسة الحديث السكرية بالقصعين بدمشق التي كان يرأسها والده . وقد أنعم الله عليه بسرعة الحفظ وقوة الذاكرة والذكاء الخارق والنبوغ الجكر^(٢) .

(ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)^(٣) فعفظ القرآن الكريم منذ حداثة سنه واستمر حافظاً له إلى أن فاضت روحه إلى ربها حتى أنه تلاء في سبحة القلعة بدمشق وخطه ثمانين ختمة وشرع فـسـى الحادية والثمانين^(٤) حتى وصل إلى قوله تعالى (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ حُلِيِّك مُقْتَدِرٍ)^(٥) . فأكمل القرآن بعد وفاته الشيخان عبد الله بن المحسب وعبد الله الزراعي .

(١) أبو المحاسن : المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ج ١ ص ٣٥٨ .

(٢) أنظر / دكتور محمد رباب : محاضرات في تاريخ الدعوة الإسلامية ص ١٥٧ .

(٣) سورة الجمعة آية ٤ .

(٤) انظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٤ ص ١٣٨ - دار الفكر العربي .

(٥) سورة القمر آية ٥٤ ، ٥٥ .

أثره في خدمة الدعوة الإسلامية :-

١ - سعة علمه :-

كان إماماً في التفسير وما يتعلق به عارفاً بالفقه ، فيقال إنه كان أعرف بفقه المذاهب من أهلها الذين كانوا في زمانه وغيره ، وكان عالماً باختلاف العلماء ، عالماً في الأصول والفروع والنحو واللغة وغير ذلك من العلوم النقلية والعقلية (١) .

وقد أثنى عليه جماعة من كبار العلماء ، من ذلك ما كتبه القاضي كمال الدين بن الزملكاني (٢) على كتاب (رفع العلم عن إلامة الأعلام) تأليف ابن تيمية مألظه : تأليف الشيخ الإمام العالم العلامة الأوحى الحافظ والجهتد الزاهد العابد القدوة إمام الأئمة ، قدوة الأئمة علامة العلماء . . الخ (٣) وقد وجد بخطه أنه قال اجتمعت فيه شروط الاجتهاد على وجهها (٤) وأن له اليد الطولى في حسن التصنيف وجودة العبارة والترتيب والتقسيم

(١) انظر / ابن كثير البداية والنهاية ج ١٤ ص ١٣٨ - دار الفكر العربي .

(٢) الزملكاني : قاضي القضاء والفتون جمال الاسلام كمال الدين أبو المعالي

المعالي محمد بن علي بن عبد الواحد بن عبد الكريم الزملكاني

الانصاري السماكي الدمشقي الشافعي قاضي قضاء دمشق ولد في سنة

سبع وستين وستمائة وتوفي سنة سبع وعشرين وسبع مائة ابن تيمية ،

النجوم الزاهرة ص ٢٧٠) - الموسسة المصرية العامة .

(٣) انظر أبو المحاسن : المنهل الصافي ج ١ ص ٣٦١ .

(٤) انظر / ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٤٠ ص ١٣٧ دار الفكر العربي

وكتب على تصنيف لابن تيمية هذه الأبيات :-

ماذا يقول الواصفون له وصفاته جلت عن الحصر
هو حجة لله قاهرة هو نبينا المجودة الدهر
هو آية في الخلق ظاهرة أنوارها أربت على الفجر
وتعلم ابن تيمية العلوم التي كانت رابحة في عصره .

ولم يترك باباً من الأبواب إلا أتقنه . ولقد قال فيه أحد معاصريه
قد ألان الله له العلوم التي كانت رابحة في عصره ولم يترك باباً من الأبواب
إلا أتقنه . وإذا سئل عن فن من العلم ظن الرأي والسمع أنه لا يعرف غير
ذلك الفن . وكان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جلسوا معه ، استفادوا
في مذاهبيهم منه . عالم يكونوا عرفوه قبل ذلك . ولا يعرف أنه ناظر أحداً
فانقطع منه ، ولا تكلم في علم من العلوم سواه . أكان من علوم الشرع أم من
غيرها ، إلا أفاق فيها أهله والنسويين إليه ^(١) فقد كان رحمه الله قل أن سمع
شيئاً إلا حفظه ، ثم اشتغل بالعلوم فدرس وتخرج على يديه علماء أجلاء
أفادوا الدعوة ومن أشهرهم ابن القيم الجوزية

٢ - جهادة ضد التتار :-

لم يقف ابن تيمية عند جهادة في العلم وإنما انتقل إلى ميدان القتال
ولم يتردد في أن يكون في طليقة المجاهدين بنفسه للتتار وهنا ظهر

(١) انظر المرجع السابق ج ١٤ ص ١٣٧ .

ابن تيمية العالم العامل ، المؤمن القوى ، المجاهد في سبيل الله . فكانت له مع العدو مواقف محمودة . وكان لهذه المواقف آثارها العظيمة في إذكاء الروح الديني^(١) والوطني لدى السلاطين والأمراء وعامة الناس . فعندما هرب الجنود إلى مصر فارين . وصار التتار على أبواب دمشق فجمع ابن تيمية العلماء ، واتفق معهم على ضبط الأمور ، وأن يذهب على رأس وقد منهم وقد ذهب الشيخ مع الوفد ، والتقى بقاذان ملك التتار وقائدهم وقد أكسب الله الشيخ حلة من المهابة . والإيمان والتقوى . وقد ذكر الذين شاهدوا اللقاء أنه ظل يحدث السلطان والسلطان مصمغ لما يقول شاخصا إليه . وتحدث كلاما قويا كان فيه مصلحة للمسلمين .

وفي سنة ٧٠٠ هـ اشتد الخطر على الشام من هؤلاء التتار فأصباح الناس ما بين هارب ، ومستسلم . فخرج الشيخ في مستهل جمادى الأولى والناس يمتلكهم الهلع والرعب إلى نائب الشام . فحثهم على الجهاد وقوى من عزيمتهم ووعدهم النصر على الأعداء إن هم صبروا وأعدوا العدة للقاء وتلا قوله تعالى " ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَكَفُؤٌ غَفُورٌ " (١) . ومات مع الجنود ليلة ثم عاد إلى دمشق وسأله النائب والأمراء أن يسافر إلى مصر يستحث السلطان على نصره الشام . فأجتمعت

(١) انظر / د محمد يوسف موسى : ابن تيمية ص ١٣٦ الهيئة المصرية

العلماء لكتاب ص ١٩٧١ .

(٢) سورة الحج اية ٦٠ .

بسلطان مصر والأمراء وقال لهم * إن كنتم أعرضتم عن الشام وحمايته أقننا له سلطانا يحميه * ثم قال لو قد رأيتم لستم حكام الشام ولا ملوكه واستنصركم أهلهم وجب عليكم النصر . فكيف وأنتم حكامه وسلاطينه وهم دعاياكم وأنتم تستولون عنهم ^(١) وقوى جأشهم . فكان لهم النصر في تلك الكربة واشترك مع السلطان في موقعة شقحب في ميدان القتال سنة ٧٠٢ هـ فهكذا كانت علاقته بالملوك يطبع في غير معصية . وينصح ويرشد في غير غلظة أو عنف إلا إذا تقاضاه الحق أن يقول في صرامة وقوة ^(٢) فقد كان رحمه الله مثلاً يحتذى به وقدوة صالحة في العفو عند المقدرة . مما كان له الأثر في هداية الكثيرين على يديه فقد استغفاه السلطان الناصر محمد بن قلاوون في العلماء والقضاة الذين ناصروا خصمه . فأفتى بأن ما هم حرام عليه . وأنه لا يحل إنزال الأذى بهم فقال له السلطان : إنهم آذوك وأرأقوا قتلك مراراً . فقال الشيخ الكريم كلمة أضاءت جنبات التاريخ : من آذاني فهو في حل ومن آذى الله ورسوله فالله ينتقم منه . وأنا لا أنتصر لنفسي . ولم يكنف الشيخ بالإمتناع عن الإفتاء والفتوى بعكس ما يريد السلطان . بل أخذ يخاطبه في العفو عنهم . فقال قاضي قضاة المالكية ابن مخلوف :

ما رأينا مثل ابن تيمية حرضنا عليه فلم نقد ر عليه وقد رعلينا فصفح عنا وحاج عنا ^(٣) . فهكذا تحقق قول الله تعالى جلجا واضحا * وَلَا تَسْتَكْبِرُوا

(١) انظر د / محمد دياب محاضرات في تاريخ الدعوة الإسلامية اسبوط .

(٢) انظر د محمد محمد ابو زهره : ابن تيمية حياته وآراءه الفقهية ص ١٣٨ دار الفكر العربي .

(٣) انظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ١ ص ٥٤ - دار الفكر العربي .

الْحُسْنُ وَلَا السَّيِّئُ إِذْ فَعَّ بِالنِّسَاءِ هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ
كَأَنَّهُ وَاحِدٌ جَمِيمٌ (١) . ولقد لقي ابن تيمية في سبيل الدعوة إلى الله
الأذى ولكنه صبروا حتسب أجره عند الله . فكانت من عباراته المشهورة
يوم منعوا عنه الكتب والورق والقلم في سجن دمشق ٧٢٦ هـ " إن حبسى خلوة
وأخرجني من بلدى سياحة . وقتلنى شهادة " (٢)

(١) سورة فصلت آية ٣٤ .

(٢) انظر / صلاح عزام : الحبه ومسئوليه الحكومه الاسلاميه لابن تيميه .

٣ - ابن حجر العسقلانى

مولده ونشأته :-

هو أحمد بن محمد بن على بن أحمد بن حجر الشافعى العسقلانى الأصل المصرى المولد . القاهرى الدار والمنشأ والوفاء ولد على أرجح الأقوال فى الثالث والعشرين من شعبان سنة ٧٧٣هـ أول مارس ١٣٧٢ م واستقر أجداده فى مصر التى انتقلوا إليها من عسقلان بأرض فلسطين^(١) وللعظيم شأن حياته فقد وضع تلميذه العالم المؤرخ شمس الدين السناوى كتاباً حافلاً بمراحل حياته .

آثره فى خدمة الدعوة الإسلامية :-

يتبوأ ابن حجر العسقلانى فى جدارة واستحقاق مركز الصدارة بين المحدثين والحفاظ فى العالم الإسلامى منذ بداية القرن التاسع للهجرة . وهو مركز لم يستطع احتلاله أحدٌ ممن عاصروه وزاحموه ولا من جاءوا بعده وشغلوا أنفسهم بهذا الضرب أو ذاك من الدراسة ، فاتفقوا على أنه حامل رأيهم والمقدم منهم والمهتدى برأيه .

(١) انظر / ابن حجر العسقلانى : انبا الغربايبا الهرج ٧ تحقيق

د / حسن حبشى - القاهرة سن ١٩٧١ .

وابن حجر متعدد الجوانب من حيث الثقافة ، فقد أسهم في الحديث والفقه والأدب والتاريخ ، وطبعت مؤلفاته صغيرها وكبيرها ومجالس إمامه كما يشهد تلاميذه وغير تلاميذه من عاصروه ^{في} مصر والشام وغيرهما من بلاد العالم الإسلامي . بطابع الدقة وتحكيم العقل والمنطق فهو . لا يورد خبراً إلا بعد أن يكون انتظمت له عدة أسباب الدراسة والبحث والتعميق والمقارنة . فقد كان رحمه الله أميناً في علمه مخلصاً للدعوة الإسلامية . فكانت جهوده مشهورة * **وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَ اللَّهُ** ^(١) فقد ذاعت شهرة مؤلفاته الضخمة في الحديث والفقه والتراجم وأشهر كتبه فتح الباري في شرح البخاري ، وهو في ستة عشر مجلداً مقدّمه ولو لم يكن له غيره من المؤلفات لكفى للثبوت بعلمه مكانته . على قول معاصريه والمنتفعين به من المحدثين حتى الوقت الحاضر .

وكتاب (إتحاف المهرة بأطراف العشرة) في شان مجلدات . وكتاب (تهذيب الكمال) في مجلد ضخمة . وتنوعت مؤلفاته فشملت التاريخ ومن أشهر مؤلفاته في التاريخ : (كتاب الدرر الكامنة) في المائة الثامنة . وكتاب أنبيا الغر بآبائهم العمر .

وصار هو المعول عليه في هذا الشأن في سائر أقطار الأرض ، وقبلة الأئمة علامة العلماء حجة الأعلام ، انتفع به الطلبة وحضر دروسه جماعته من علماء عصره وقضاة قضائهم ^(٢) .

(١) سورة البقرة من الآية ٢٨٢ .

(٢) انظر / ابو المعاسن : المنهل الصافي ج ٢ ص ١٧ : ٢٧ .

هذا إلى جانب دوره في خدمة الدعوة من خلال سلوكه - فقـــد
كان رحمه الله يحسن لمن يسى * إليه ويتجاوز عن قدر عليه .

فكان ذا وقار ومهابة . وسعى العلماء وكانت أمانتهم أن يصلوا
إلى رتبته في الحديث فقد قال عنه السيوطي * إنه لما حج شريت من مسا
زمزم لأمر منها أن أصل في الفقه إلى رتبة سراج الدين البلقيني . وفي
الحديث إلى رتبة الحافظ ابن حجر العسقلاني * (١)

(١) السيوطي : حسن المعاصرة ج ١ ص ١٥٧ - مطبعة الموسوعات .

٤ - جلال الدين السيوطي

مولده ونشأته :-

هو عبد الرحمن بن الكمال ابن بكربن محمد بن سابق الدين ابن الفخر عثمان بن الناظر الدين محمد بن سيف الدين خضر بن نجم الدين أبي الصلاح أيوب بن ناصر الدين محمد بن الشيخ همام الدين الهمام الخضيرى الأسوطى . حفظ القرآن وهو من شامئى سنين . وحفظ العمدة وشهاج الفقه والأصول وألفية ابن مالك^(١) واشتغل بالعلم مبكرا . وسافر السيوطى إلى بلاد الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب^(٢) والتكروير

شمار علمه :-

قال السيوطى " رزقت التبحر فى سبعة علوم : التفسير والحديث والفقه والنحو والمعانى والبيان والبدیع على طريقة العرب والبلغا . لا علمى طريقة المعجم وأهل الفلسفة"^(٣)

وقد ظل السيوطى طوال حياته شغوفا بالدرس شتغلا بالعلم يتلقاة من شيوخه ويلقنه لتلاميذه أو يحرره فى الكتب والأسفار .

وأما كتبه . فقد أخصى السيوطى منها فى كتابه نحو من ثلاثمائة كتاب فى مختلف العلوم . فما زالت مؤلفاته مصدراً غنيا للباحثين . وكان

(١) انظر السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٥٦ مرجع سابق .

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ١٥٧ .

(٣) المرجع السابق .

رحمه الله في حياته الخاصة مثلاً يحتذى به فقد كان على أحسن ما يكون عليه علماء ورجال الفضل والدين عفيفاً كريماً ، غنى النفس متباعداً من ذوى الجاه والسلطان ولا يقف بباب أمير أو وزير ، قانعاً برزقه . وله مواقف مع سلاطين الماليك تدل على نزاهته . فقد ذكر أن السلطان المفسورى أرسل إليه هدية وكانت ألف دينار وخصياً ، فرد الدينانير ، وأخذ الخصى ثم أعتقه ، وجعله حارساً في الحجرة النبوية . وقال لرسول السلطان . لا تعد تأثينا قط بهدية ، فإن الله أغنانا عن ذلك ^(١) فهكذا كانت صفات علماء ذلك العصر .

(١) انظر د / على احمد الخطيب / مجلة الا زهر عدد مايو ١٩٩٣ / ذو

القعدة ١٤١٣ هـ ص ٢٠

٥ - بدر الدين العيني

مولده ونشأته :-

بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن يوسف ابن محمود الشهير بالبدر العيني . ولد في بلدة (عنتاب) بين حلب وأنطاكية في السابع عشر من رمضان سنة اثنين وستين وسبع مائة من الهجرة ، ونشأ بها نشأةً أثراً . زمانه ، فتلقى العلوم على أيدي والده القاضي شهاب الدين أحمد وعلى غيره من الشيوخ

أثره في خدمة الدعوة الإسلامية :-

نال البدر من رفعة المنزلة وعلو الدرجة أيام السلطان برسيای ما لم ينله في أيام غيره من السلاطين . فكان يترجم له تاريخه (عقد الجمان) إلى التركية ، ويعلمه أمور الدين . ولمعرفة مكانة البدر ودوره في خدمة الدعوة الإسلامية ما قاله السلطان الأشرف برسيای " لولا البدر العيني لكان في إسلامنا شيء " . وقد عدّه الحافظ ابن حجر في عداد شيوخه برغم تقاربهما في السن .

وقد ترك لنا البدر العيني رصيداً ضخماً في الصفات في جميع العلوم المعروفة في زمانه ، حتى قيل إنه لا يقارن به واحداً من أهل عصره في كثرة صفاته . إلا أن يكون الحافظ ابن حجر . فصف البدر العيني في علوم التفسير ، وعلوم الحديث ، وعلوم اللغة ، والفقه والتاريخ والمنطق والمروء^(١) ولا شك في أن هذا التراث الذي خلقه لنا البدر العيني

(١) انظر / العيني : السيف المهند في سيره الملك المؤيد ص ٤٠ .

يعطى فكره واضحة عن القيمة العلمية التي كانت له في عصره ومضى ما كان يتمتع به من سعة الإطلاع والمقدرة الفائقة في البحث والتقصي، ولقد أثنى عليه كثير من العلماء من عاصروه أو جاءوا بعده . فقيـل عنه ، إنه شيخ العصر وأستاذ الدهر ، ومحدث زمانه المتفرد بالرواية والدراسة . وقيل عنه أيضا . كان إماماً عالماً ، حافظاً للتاريخ واللغة وكثير الإستعمال لها مشاركاً في الفنون لا يمل من المطالعة والكتابة . ويكفي الإشارة إلى مؤلفه الضخم في التاريخ "عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان" حيث إن البدر كان شاهد عيان للأحداث ومشاركاً فيها . وتعتبر مؤلفاته مصدراً غنياً للباحثين إلى عصرنا هذا . وسجل ذلك العصر ملوك العلماء والدعاة الذين لهم مواقف عظيمة عند السلاطين . وهم أكثر من أن تحصيهم عدداً .

الباب الثالث

الدولة المملوكية بين الشبهات والسقوط

ويشتمل على فصلين :

- * الفصل الاول : مزاعم ومفترقات حول الدولة المملوكية
- * الفصل الثانى : نهاية الدولة المملوكية

الفصل الأول

مزاعم ومفتريات حول الدولة المملوكية

١١١ الباب الثالث *

الدولة المملوكية بين الشبهات والسقوط

(الفصل الأول)

* مزاعم ومفتريات حول الدولة المملوكية *

ينال المستشرقون والحاقدون على الإسلام من كل دولة رفعت راية الجهاد ضد المعتدين ، حيث إن الدولة المملوكية كانت من الدول الإسلامية التي رفعت راية الجهاد ضد الصليبيين والتتار . ودافعت عن البلاد الإسلامية بقوة حتى قضت على الأعداء^(١) لذا فهي لم تسلم من مفترياتهم فمن تلك المفتريات إتهامهم الممالك بالدكتاتورية والسكر والمجون والغبرة وباضطهادهم لأهل الذمة وسنحاول أن نتعرض لتلك المفتريات مبينين مدى صحتها :-

أولاً : إتهام الممالك بالدكتاتورية^(١) :

وفى ذلك يقول الدكتور أحمد شلبي * إنه في إحدى المحاضرات التي ألقاها أستاذ التاريخ قال * إن الممالك كانوا يحكمون مصر حكما دكتاتوريا^(٢) ونحن نرد على هذه الغربة بأنه لا بد عند الحكم على عصر من العصور لا بد أن نأخذ في الاعتبار خصوصية المجتمع وخصوصية العصر ، فإنه لمن الظلم الفاحش أن نقارن الحركة العلمية في العصر المملوكي مثلا بالحركة العلمية في عالمنا المعاصر . وكذلك لا يمكننا مقارنة نظم الحكم في العصر المملوكي بعالمنا المعاصر . ولكن الشيء والمنطقي أن نقارن بالعصور القريبة له .

(١) الدكتاتورية : لفظ مأخوذ عن اللاتينين ما يتعهد به (النظام

السياسي الذي بمقتضاه يستولي فرد أو جماعة على السلطة المطلقة

دون اشتراط موافقة الشعب^(٣) انظر / د . أحمد شلبي - موسوعة

التاريخ الاسلامي ج ٥ ص ٢٢٢ . مكتبة النهضة ١٩٩٠ م .

ولو تتبعنا ذلك المنطق لوجدنا أنَّ المالِك كانوا أكثر ديمقراطية من غيرهم
فلو نظرنا إلى ملوك الإنجليز من القرن الثالث عشر مثل الملك هنري الثاني
وابنه الملك جون . حيث خلع الإبن أباه بوليرة خائفة . وتسلبت على الأمراء
ورجال الكنيسة^(١) وتاريخ تلك الدول مليء بالأحداث المظلمة التي توضح
أن الديكتاتورية كانت الأصل السائد في تلك العصور . فما أشد الخطأ
عندما نحكم على عصر سابق بعلم عصر حاضر . ومع ذلك لو نظرنا إلى حكم
المالِك برؤية معاصرة لا تضح لنا أن حكمهم لم يكن ديكتاتوريا بالمعنى
المعاصر للديكتاتورية . حيث تمتع علماء ذلك العصر بنفوذ وسلطات واسعة
لا يمكن أن تتاح لهم في ظل نظام ديكتاتوري . ونشير إلى بعض المواقف
الرائعة لعلماء ذلك العصر . فعزى العزيز بن عبد السلام . حيث يروى لنا
السيوطي عنه في حسن المحاورة أن الشيخ تصدى لبيع أمراء الدولة الأتراك
وذكر أنه لم يثبت عنده أنهم أحراراً وأنَّ حكم الرق مستحب عندهم والشيخ
مضم بالآ يصح لهم بيعاً ولا شراً ولا نكاحاً وبذلك تعطلت مصالحهم وكان
نائب السلطنة من جعلتهم فاستشار غضبا فاجتمعوا وأرسلوا إليه . فقال الشيخ
نعقد مجلسا وننادى عليكم بالبيع لبيت مال المسلمين . وقد حاول السلطان
منع الشيخ من هذه الفتوى فأبى وتمسك . وقد وصل الأمر إلى ترك الشيخ
مقر عمله . ولكن العامة من خلفه يؤيدونه وأخيرا رضخ السلطان لأمر الشيخ
وجمع كل الأمراء في القلعة بأمر الشيخ ثم عرضوا في مزاد ونادى الشيخ فغالب

(١) المرجع السابق ص ٢٢٢ .

من شئهم حتى امتنع الحاضرون عن المزايدة في الشئ . فتقدم السلطان
فدفع شئنا أزيد من ماله الخاص لا من مال بيت المال حتى اشترى جميع الأمراء
المالكي واعتقهم لوجه الله فصاروا أحراراً وما قبضه الشيخ وزعه على الفقراء
وطلاب العلم وأقام مكاتب لتعليم القرآن والخط وعلوم اللغة ^(١) . وليت الأمر
انتهى عند ذلك بل أن الشيخ رفض مبايعة الظاهر بيبرس سلطاناً وقال له
ما أعرفك إلا مملوكاً للبنقداري . فأنت عبد لا تصلح لتولي الأمر فالشرط أن يكون
ولي الأمر حراً . وذلك أن الرق يمنع من انعقاد الولاية ^(٢) ولكن من أعتق
يجوز له أن يكون من أهل الولاية الكاملة وهي عدة شروط نجعلها " الإسلام
والحرية والذكورة والبلوغ والعقل " وأثبت الظاهر أنه أعتق وأنه أصبح حراً
فبايعه الشيخ بعد أن تأكد من حريته وتلك الحرية والمكانة العظيمة لهؤلاء
العلماء التي جعلتهم يخوضون في قضية تخص شخص السلطان لدليل واضح
على أن روح الإسلام كانت هي السائدة في ذلك العصر وهي التي جعلت
سلاطين المالكي يتقبلون ذلك الأمر بصدور رجب . وكان للشيخ محيي الدين
التتوي المتوفي في عام ٦٧٦ هـ مواقف مشهودة مع السلطان بيبرس ومراسلات
إليه فيها التوجيه الرشيد والنصح الصريح ^(٣) وقد حدث أن تعرضت البلاد
في بعض عهود الركود إلى أزمات مالية حادة اختل بسببها ميزان السواد

(١) انظر د . / محمد دياب : محاضرات في تاريخ الدعوة الإسلامية

(٢) انظر د . / سليمان محمد الطماوي : نظام الحكم والادارة في الإسلام

ص ٤٣٣ دار الفكر العربي .

(٣) راجع / هذه المكاتبات في السيوطي ج ١ ص ٦٧ : ٧١ - مطبعة

الموسوعات .

والمصرف فاضطرت الدولة إلى الضغط على مصروفاتها والدعوة إلى التقشف . ومحااربة البذخ والإسراف مع زيادة الموارد الإنتاجية ولكن ما السبيل إلى تنفيذ تلك السياسية ؟ لم يكن من سبيل أمام وزير الدولة فيعينه كـ في سنة ٧٥٠ هـ / ١٣٤٩ م إلا الاستعانة بأهل العلم^(١) وتم اجتماع بسدار العدل تشاور فيه مع قاضي القضاة والقضاة وكبار الأحرار . يحضره السلطان ومناقشة ما أحدثته نساء السلطان وجواريسه من قصاص طوال تخب أن يالها على الأرض ، بأكماس سعة الكم منها ثلاثة أذرع وأبطل لبس إلا زار البغدادى وحدد ثمن إلا زار الحرير بألف درهم . وأن خف المرأة وسرورتها بخمسمائة درهم . ناقش المجتمعون أثر هذه الموديلات الجديدة في الغلاء البغدادى تعاني منه طبقات الشعب وأن نساء القاهرة تشبهن بنساء السلاطين في تغيير زيهن ومجاراتهن في ملابسهن على حين تجد طبقات العامة مشقة كبرى في الحصول على ضروريات الحياة من ملابس ومأكل وأفتى المجتمعون بأن هذه من الأمور المحرمة التي يجب منعها^(٢) وطبقت تلك الفتوى بالقوة على الجميع فهل تستطيع حكومة ما مهما بلغت من القوة أن تنصت لحاشية نساء السلطان ورغباتهن ؟ وأن تناقش في حضرة السلطان أمراً حساساً كقصان نسائه هل تستطيع حكومة أن تفعل ذلك دون مساندة علماء الدين الإسلامى .

(١) انظر ابن بطوطة "الرحلة" ج ١ ص ١٤ - ط . القاهرة ١٩٦١ .

(٢) انظر / د . نظير حسان سعداوى : صورة مظلة من عصر

المماليك ص ٦٤ .

أليس هذا مظهرًا من مظاهر قوتهم والحق يذكر أن سلاطين الماليك أتاحوا للعلماء القيام بدورهم العظيم في خدمة الدعوة الإسلامية من خلال مشاورتهم قبل الإقدام على أعمال هامة . وكان للعلماء والتجار أيضا المشاركة الفعالة في شئون الحكم مما ينفي الدكتاتورية من حكم الماليك وإن كنا لا ننفي وجود بعض الممارسات الدكتاتورية التي ترجع إلى سلاطين ضعاف لا يؤثرون على عموم سلاطين الماليك . الذين تملكوا نواحي العرب والعجم على قول الرحالة ابن بطوطة ففتحوا أبواب القاهرة لجميع الوافدين أفراناً أو جماعات على تباين جنسياتهم ومذاهبهم السياسية ومعتقداتهم الدينية^(١) . فأوى إليها ملوك فقدوا عروشهم وسكنها لاجئون سياسيون اضطهدوا في أوطانهم وحل بها حجاج عابرون إلى الأراضي المقدسة ونالوا الرعاية والحماية وهاجروا إليها المهاجرون من المغفل بقصد الاستيطان .

ثانياً : اتهام الماليك بالسكر والمجون والعريضة :

اتهم كتاب التاريخ وخاصة المستشرقين سلاطين الماليك بالسكر والمجون والعريضة . هؤلاء السلاطين الذين كانوا يعتبرون أن الجهاد الإسلامي ضد أعدائهم من الفرنج والتتار وغيرهم فريضة من الواجب إقامتها . أي أنها لم تكن غائية كما هي الآن في عالمنا المعاصر كما أنهم كانوا يرون أن الخلافة من الواجب إقامتها لأنها هي التي تجمع شمل المسلمين وهي كالسراج الواقى

(١) انظر المرجع السابق ص ٦٤ .

للأمة . وحينما لا حظوا ضعف سلطان الخلافة ، قاموا بتدعيمها ومساندتها
إيماناً منهم أن الخلافة جزء من الإسلام ^(١) ولذلك نجد هم يتبعون استراتيجية
الاندماج التي نادى المماليك بها إلى توسيع الدولة المصرية لتشمل سوريا
وأرمينيا والأناضول وتكوين جبهة إسلامية قوية في مواجهة قوى الشر
المتحالفة وانطلاقاً من قوله تعالى : **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا** ^(٢)
وقامت هذه الدولة التي اتهم سلاطينها بالسكر والمجون والعريضة بالانقراض
الحضارة من خطر التتار حيث قامت الجيوش المصرية بقيادة ملكها المظفر
قطز بالمبادرة ولقاء العدو القادم واستطاع الجيش المصري في عين جالوت
أن يلحق الهزيمة بالجيش التتاري ولأول مرة انهزم جيش التتار وتبعته الجيوش
المصرية تدقيقهم بعض ما أنفقوا الامنيين . فقتلوههم وشردهم وصاروا يقتلون
ويأسرون . ولم يكتف المصريون بإجلائهم من دمشق . فلما أجلوهم بقيادة
الظاهر بيبرس من المدن السورية والثغور كانت هذه أول مرة تنكسر فيها تلك
الصخرة القوية التي جاءت من الصين هاوية على رؤوس الناس وخاصة المسلمين
ولا يعلم إلا الله أين كانت تقف لو لم يؤيد الله المصريين بنصره في عين جالوت
ومن المؤكد أنها كانت قاصدة أوروبا . ولذلك يقول المؤرخون إن مصر عندما
حطمت تلك الصخرة لم ينقذ إلا سلام وحده بل أنقذت المسيحية أيضاً وبسبب

(١) انظر د / جمال عبد الهادي : أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ

الصريق إلى بيت المقدس ج ١ ص ١٦٣ - الوفا للطباعة والنشر .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٠٣

أنقذت الحضارة من أن يقضى عليها أولئك الوحوش ^(١) . فليعرف أولئك الذين
تطاولوا على سلاطين الدولة المملوكية أنهم حموهم بصنيعهم أمام التتار من
النساء . هؤلاء القوم الذين اتهموهم بالسكر والمجون قاموا برحلة جهنم
طويلة أمام الصليبيين فتحت مواصلة أعمال صلاح الدين بعد هدنة طويلة انتهت
بتصفية الإمارات الصليبية العنقية والإستيلاء على عكا آخر معقل للصليبيين .
فكان سلاطين المماليك بحق حماة الدولة الإسلامية . فيذكر أن بيبرس عندما
طلبوا منه الهدنة رد عليهم بمنتهى الجفوة وقال لرسولهم ردوا ما أخذتموه من
البلاد ونكروا أسرى المسلمين جميعهم فإني لا أقبل غير ذلك ثم طردهم من
مجلسه ما يدل على تصميمه على القتال ^(٢) . ثم لو أننا نظرنا إلى عهد المماليك
في مصر . وقيس هذا العهد بما وصلت إليه الخدمة الاجتماعية في إنجلترا
أو روسيا ؟ إننا ندع الإجابة على هذا التساؤل للوثيقة التاريخية التي أثبتت
فيها " وحجة وقف مستشفى قلاوون " فقد جاء في هذه الحجة ما يلي :-
" أنشئ هذا البيمارستان لمدواة المرضى من المسلمين الرجال والنساء من
الأغنياء المقترفين والفقراء المحتاجين بالقاهرة وضواحيها من المقيمين بها
والواردين عليها وعلى اختلاف أجناسهم وتباين أمراضهم وإصاباتهم . يدخلون
جموعا ووحيدانا وشبابا وشبابا ويقوم به المرضى الفقراء من الرجال والنساء لمدواتهم
لحين برئهم وشفائهم ويصرف ما هو معد فيه للمدواة ويفرق على الجميع
والقريب والأهل والقريب من غير اشتراط لعوض من الأعواض ويصرف الناظر من ربح
هذا الوقف وما تدعوا حاجة المرضى إليه من سرر جريد أو خشب على ما يراه

(١) انظر / د . محمد محمد أبو زهرة : الامام ابن تيمية حياته وعصره

وآراؤه الفقهية ص ١١٥ - دار الفكر العربي .

(٢) انظر / د . أحمد مختار المبادئ : تاريخ دولة المماليك البحرية ص ٤٧ .

مصلحة ، أو لحف محشوة قطناً وطراريح محشوة بالقطن . فيدخل لكل مريض من الغرش والسرر على حسب حاله وما يقتضيه مرضه عاملاً في حق كل منهم يتقوى الله وطاعته بان لا جهده وغاية نصحه فهم رعيته وكل راع مسئول عن رعيته ويباشرفي المطبخ بهذا البيمارستان ما يظهي للمرضى من دجاج ولحم ويجعل لكل مريض ما طبخ له في زيادة خاصة به من غير المشاركة لعرض آخر ويفطيمها ويوصلها لكل مريض إلى أن يتكامل إ طعامهم ويستوفى كل منهم غذاءه وعشاءه وما وصف له بكرة وعشيا . ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف لمن ينصبه من الأطباء المسلمين الذين يباشرون المرضى مجتمعين ومتناوبين ويسألون عن أحوالهم وما يجد لكل منهم من زيادة مرض أو نقص ما ويكتبون ما يصلح لكل مريض من شراب وغذاء أو غيره في " دستور ورق " ويلتزموا بالمبيت في كل ليلة بالبيمارستان مجتمعين متناوبين ويباشرون العداواة ويتلطفون فيها . ومن كان مريضاً في بيته . . . وهو فقير . كان للناظر أن يصرف إليه ما يحتاجه من الأشرطة والأدوية والمعاجين وغيرها ، مع عدم التضيق في الصرف . . . الخ هذه حجة مستشفى قلاوون التي أملت بها الروح الإسلامية من سبعة قرون والتي تدل على تسك سلاطين المماليك بالشرعة الإسلامية وتدل أيضاً على التقدم العلمي الواضح في عزل المرضى عن بعضهم البعض خشية من انتشار العدوى في وقت كانت أوربا وقتئذ أقطاراً لا تعرف غير قوانين الغابة^(١) فهل يعقل أن

(١) انظر / د . محمد محمد أمين الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر

ص دار النهضة العربية ١٩٨٠ .

(٢) انظر / د . محمد الغزالي : ليس من الاسلام ص ٢٧ - مكتبة وهبة .

نتهم عصرنا بأكمله بالمجون نتيجة لحواشي معدودة وإن كان استند البعض إلى زيادة الاضطرابات الداخلية . في دولة المماليك البرجية . ولكن المؤرخين الذين يعتمدونهم . أجمعوا على أن حكم بعض ملوك الشراكسة كان مثلاً يحتذى به في النزاهة ، والسهر على راحة الرعية ونشر العلوم والمعارف ، حتى كان الناس يسمونهم لفجيعتهم ومن هؤلاء الملوك العظيم بريقوق والأشرف برسباي وقانصوه الغوري وطومان باي . وأيضاً لو جمعت عدد السنين التي حكم خلالها هؤلاء لوجدتها تزيد على المائة عام من مجموع السنوات التي حكم خلالها ملوك الشراكسة وهو مائة وخمسة وثلاثون عاماً . فلقد جاء السلاطين المماليك الوقوف من سبائك المشرق والمغرب ومن العرب والعجم ومن الدول الإسلامية ومن قارات أفريقيا وأوروبا وآسيا^(٢) . حقاً لقد غدت القاهرة حاضرة الدنيا فسي عهدهم .

ثالثاً : اتهام السلاطين المماليك باضطهاد أهل الذمة :

يزعم المستشرقون ومن سار على منوالهم أن أهل الذمة اضطهدوا في العصر المملوكي . وفي الواقع أن معاملة سلاطين المماليك لأهل الذمة كانت مستمدة من الروح الإسلامية ملتزمة بالعدالة تجاه غير المسلمين عملاً بتعاليم الدين الإسلامي . فقد تمتع أبناء الأقليات الدينية سواء من اليهود والنصارى بممارسة

(١) انظر / د . راسم رشدي : مصر والشراكسة ص ٤٨ .

(٢) انظر / د . نظير حسان سعداوى صور ومظالم من عصر المماليك

كل المعين والحرف التي مارستها المسلمون ومن ناحية أخرى فإن الوثائق تشير بوضوح إلى أن اليهود والنصارى فقد تملكوا العقارات في شتى أنحاء البلاد إما عن طريق البيع والشراء وإما عن طريق الموازنة . كما تدل الوثائق على أن اليهود والنصارى كانوا يتعاملون مع المسلمين في عمليات البيع والشراء في حرية تامة في ظل القرآن الكريم الحاكمة آنذاك^(١) ورغم ذلك استشهد أهل الذمة في ذلك العصر بميولهم وتواطئهم مع التتار ضد المسلمين . مما جعل الملك الظاهر بيبرس والذي استشهد بالعدل والأخلاق الحميدة لم يعاملهم معاملة تنطوي على العطف والرعاية بسبب ما كانوا يقومون به من المناوشات والفتن . فقد حدث أن أكثر الحريق بالقاهرة أثناء اشتغاله بفتح أرسنوف سنة ٦٦٣ هـ وأُشيع أن النصارى هم الذين أشعلوا هذه النيران . فلما عاد بيبرس إلى مصر أنكر عليهم هذه الأمور التي تفسخ عهدهم ثم أمر بإحراقهم فشفع فيهم الأمير فارس الدين أقطاي أتابك العساكر على أن يلتزموا بدفع قيسة ما أحرق وأن يقدموا لبيت المال خمسين ألف دينار في كل عام فأطلق صراحهم وتولى بطريقهم دفع الأموال المظلوية والتعهد بالألأ يعودوا إلى فعل شئىء من المنكرات وألا يخرجوا عما هو مقدر لأهل الذمة^(٢) وكان عهد الناصر أكثر عطا على النصارى ممن سبق من سلاطين المماليك . حتى أنه أمر بإعادة كل من طرد منهم إلى وظيفته ومنع عنهم الأذى . اللهم إلا إذا استثنينا بعض الحوادث العارضة التي كانت تؤدي إلى تغير السلطان العامة . أما مرسوم الملك الناصر بتميز عما شتمهم فكان له ما يبرزه وهو ما كان يخشاه من عيون النصارى

(١) انظر د / علي إبراهيم حسن : تاريخ المماليك البحرية ص ١٤٩ -

النهضة المصرية سنة ١٩٦٧ .

(٢) انظر د / جمال الدين سوزر : دولة الظاهر بيبرس ص ١٥٣ - دار

الفكر العربي ١٩٦٠ .

الباقين من الحملة الصليبية وأن يكون بعض الذميين عيونا لهم ^(١) وحتى لا يبيث من يميلوا إلى الصليبيين سمومهم في الجماعة الإسلامية فالمعاملة كانت من جنس العمل . حيث أحسن سلاطين المماليك إلى أهل الذمة طالما التزموا بواجباتهم وجهدوا لحماية الأمة الإسلامية . وذلك ما يقتضيه العقل السليم والشرع وخلاصة القول * أن الموقف الرسمي لسلاطين المماليك تجاه رعاياهم لغير المسلمين من خلال الوثائق الكثيرة التي خلفها لنا ذلك العصر كانت تحفظ لأهل الذمة حقوقهم ومصالحهم . فقد حددت المراسيم من السلاطين والأمراء طوال عصر المماليك التي تحفظ لأهل الذمة حقوقهم .

(١) انظر / د محمد محمد أبو زهرة : ابن تيمية حياته وآراؤه الفقهية

ص ٦٣ - دار الفكر العربي .

(٢) للاطلاع على تلك الوثائق راجع / قاسم عبده : أهل الذمة في مصر

ص ٤٤ - دار المعارف سنة ١٩٨٣ .

الفصل الثانى
نهاية الدولة المملوكية

نهاية الدولة المملوكية

أسباب سقوط الدولة المملوكية :-

تعرضت الدولة المملوكية إلى عوامل عديدة متشابهة كانت سببا في انهيار تلك الدولة التي حكمت لمدة قرنين ونصف من الزمان . فهناك عوامل داخلية تكمن في انهيار الأنظمة والفساد في كيان الدولة المملوكية هذا إلى جانب العوامل الخارجية التي كانت بمثابة المعجل لسقوط الدولة التي كانت على حافة الانهيار .

أولا : العوامل الداخلية :-

حيث دبت الشيوخة في أوصالها واعترى^(١) الفساد في نظمها . فعجزت عن الاحتفاظ بكيانها وسرى الطعف في دولة سلاطين المالكي ورجع هذا الضعف إلى عوامل أساسية تتعلق بالنظام الذي قامت عليه الدولة المملوكية وأهم هذه العوامل :-

١ - فساد النظام الإقطاعي :-

الدولة المملوكية دولة إقطاعية حيث إن الأرض ملك للسلطان . الذي يقوم بتوزيعها على الجنود . وأي هزة زراعية معناها انهيار النظام ، وبالتالي الدولة لذا حرصت الدولة عندما عجزت على تلبية احتياجاتها إلى فرض ضرائب جديدة على الشعوب مما يؤدى إلى قيام اضطرابات كانت معجلة لنهاية الدولة المملوكية .

(١) انظر د / نعيم نكي طرق التجارة الدولية بين الشرق والغرب فسى
آواخر العصور الوسطى ص ١٣ الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ١٩٧٣ .

٢ - اختلال نظام الممالك الإجتماعى والحربى :-

اختل النظام الإجتماعى والحربى نتيجة لإهمالهم الأسس التى قامت عليها تربيتهم ونشأتهم الأولى . حيث كانوا يصلون إلى مصر صغاراً يتعلمون الطاعة يتحلون بالدين والأخلاق . وأدرك مؤرخوا ذلك العصر الدور الحيوى فى سلوك الممالك فيذكر ابن تغزى لفا ذلك فيقول " لله در ذلك الزمان وأهله ما كان أحسن تدبيرهم وأصوب حرسهم من جودة تربية صغيرهم وتعظيم كبيرهم حتى ملكوا البلاد ودانت لهم العباد واستجلبوا خواطر الرعية فنالوا الرطب السنية " (١) وجعلها العقريزى من مفاخر السلطان قلاوون حيث قال " لو لم يكن من محاسنه إلا تربية ممالكه وكف شرهم عن الناس لكفاه ذلك عند الله "

هذا الجانب الى خضوع الملوك لتربية عسكرية فى مرحلة الشباب فأصبحت لديهم القوة العسكرية التى قاد أمرها الروح الإسلامية فكان لهم مواقف عظيمة فى الجهاد ولكن سبحانه وتعالى يغير ولا يتغير . حيث تولس الحكم سلاطين أهملوا ذلك الجانب التربوى . وهلب الممالك وهم فى سن الشباب وتلك عملية خطيرة إذ أن قدوم الممالك من مناطق مختلفة وهم فى هذا السن جعل الأفكار متضاربة ما أفقدهم روح النظام والطاعة وحل محلها العصيان والتمرد وكانت الطامة الكبرى جبهلهم الأمـ

(١) ابن تغزى النجوم الباهرة ج ٨ ص ٢٢٨ الموسسة المصرية العامة .

الشرعية والعسكرية معا. وفي عهد الناصر فرج^(١) أهمل شأن الماليك حتى صاروا من أرذل الناس وأدناهم وأخطبهم قدرا وأشجعهم نفعا وأجهلهم با أمــــر الدين ، وأكثرهم إغراضا^(٢) وفي ذلك يقول الله " وَمَنْ أَكْثَرُ عَنِ ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً " ^(٣) فكان ذلك سبيلهم إلى الإنحراف .

٣ - انحراف الماليك :-

انتشر الفساد فى كيان الدولة المملوكية. ويذكر أن الناصر فرج كما يحدثنا عنه بن إياس : أنه جعل شرب الخمر من شعائر الملكة عــــام ٧٩١ هـ - س ١٣٨٩ م فكان الأمراء يجتمعون فى الميدان الذى تحت القلعة يشربون ويسكرون بحضور السلطان^(٤) . وانتشر اللهو والمجون والتبذل وفى ذلك بلاء عظيم حيث تجاهروا بالمنكرات فكثرت ذنوبهم وفى ذلك يقول بن القيم " ومن عقوبات الذنوب أنها تزيل النعم وتحل النقمة

(١) الناصر فرج : هو السلطان فرج بن السلطان برقوق أول ملوك الجراكسة

كان الناصر هذا اعظم الناس حزلا لادى الاسلام واشتمهم طلعه على المسلمين والعجيب أنه لما ولد أقيـل يلبغا الناصرى ومتأشــــن فىشره أباه فسماه (بلباق) يعنى فتنه . فلما خلاص أبوه مــــن سجن الكرك سمى فرجا فكان أسمه الاول وهو الحقيقى . انظر بن حجر العسقلانى : أنباء الغمر بأبناء العمر ج ٢ ص ٥١١ .

(٢) انظر/ على مبارك : الخطط التوقفية ج ١ ص ١٣٤ الهيئة المصرية

العام : ص ٦٩ .

(٣) سورة طه آية ١٢٤ .

(٤) ابن تفرى : النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٠٠ . الموسس المصرية العام .

فما زالت عن العبد نعمة إلا بسبب ذنب ولا حلت به نعمة إلا بذنب
كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه ما نزل بلاء إلا بذنب
ولا رفع بلاء إلا بتوبة^(١) وقد قال الله تعالى "وَمَا أَصَابَكُمْ مَسْرُورٌ
مُّصِيبَةٌ فَمِمَّا كَسَبَتْ آيَاتُكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ"^(٢) وقال تعالى "ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ
لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ"^(٣) وفي ذلك يقول
الشاعر :-

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا
وتكاسلوا عن الجهاد فانطبق عليهم قول الإمام بن تيمية "إن الناس
إذا اشتغلوا بالجهاد في سبيل الله جمع الله قلوبهم وألف بينهم ، وجعل
بأسهم على عدو الله وعدوهم وإذا لم ينغروا في سبيل الله عزهم الله بأساً
يلبسهم شيماً ويزيق بعضهم بأس^(٤) بعض" فكان حالهم هكذا حيث تفرقت
كلمتهم وصاروا أحزاباً وشيعاً^(٥) .

وصارت بينهم الحروب المتفاقمة . وتقاتلوا في حارات القاهرة
وضواحيها وتولى الحكم سلاطين ليس لهم من الحكم إلا اسم لصغر سنهم ،
فتسارع الأسراء واستبدوا بالسلطة . فكان يتولى الحكم في السنة الواحدة

(١) ابن القيم : الجواب الكافي ص ٤٩ مكتبة المتبلى

(٢) سورة الشورى آية ٣٠ .

(٣) سورة الانفال آية ٥٣ .

(٤) بن تيمية : الفتاوى الكبرى ج ٥ ص ٤٤ ، ٤٥ .

(٥) أنظر / على مبارك : الخطط التوفيقية ج ١ ص ١٤٥ الهيئة المصرية
العامة .

أكثر من سلطان. فكانت مدة حكم بعضهم لا تتعدى شهرين فأصبحت لهم
 قلاقل واضطرابات استمرت سنوات^(١) مثلما حدث في سن ٨٨١ هـ - سن ٨٨٣ هـ
 وغير ذلك من الفتن وانتشر الظلم في البلاد فكان ذلك طريق السقوط حيث
 قيل أن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا يقيم الدولة الظالمة
 وإن كانت مسلمة ويؤكد هذه الحقيقة حديث الرسول صلى الله عليه وسلم لقومه
 وعشيرته فقد رشحهم مكانتهم في جزيرة العرب لسيادتهم وتولى مقاليد
 الحكم ولكن النبي صلى الله عليه وسلم بين لنا أن دوام الملك بالخلق وحده.
 عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم * الأئمة من
 قريش ولي عليكم حق عظيم ولهم ذلك إذا ما فعلوا ثلاثاً : إذا استرحموا
 رحموا ، وإذا حكموا عدلوا ، وإذا عاهدوا^(٢) وفوا . فمن لم يفعل ذلك فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين^(٣) فهذا
 الحديث حاسم في أنه لا مكانة لامة ولا لدولة ولا لأسرة إلا بقدر ما تمسك
 في العالم من صفات عالية .^(٤) فكان كثرة الظلم والفساد داعياً إلى
 السقوط .

(١) أنظر د / عبد المنعم ماجد طومای طومای باى ص ٦٨ مكتبة

الانجوا المصرية من ١٩٧٨ .

(٢) مسند الامام أحمد بن حنبل . منتخب كنز العمال في ستن الاقوال .

والافعال المجلد الثالث ص ١٢٩ دار الفكر العربي .

(٣) أنظر / محمد العزالي : خلق المسلم ص ٣١ دار الكتب الاسلاميه .

٤ - انتشار الرشوة والمحسوبية :

إنَّ الرشوة والمحسوبية إذا ما انتشرت في المجتمع تقضي عليه كما تقضي
المكروبات والأمراض الخبيثة على الإنسان .

ولذا نجد الشارع يحرم ذلك فيقول الله تعالى * وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ
بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحَمَامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِآلِئِهِمْ
وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ^(١) * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا
أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ ^(٢) .

وروى الترمذي بسنده عن عبد الله بن عمر ، قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم * لعن الله الراشي والمرتشى * ^(٣)

وقال العلماء الراشي هو الذي يعطى الرشوة والمرتشى هو الذي
يأخذ الرشوة . وإنما تلحق اللعنة الراشي إذا قصد بها أذية مسلم
أو ينال بها مالم يستحق . ^(٤)

وأصبحت الرشاوى والمздоقات هي القاعدة المتبعة في تولي
الوظائف والمشكلة أنها أصبحت هي القاعدة في تولي وظيفة الحسبة

(١) سورة البقرة آية ١٨٨ .

(٢) سورة النساء آية ٢٩ .

(٣) سند الامام بن حنبل - المجلد الثاني ص ٣٨٧ دار الفكر
العربي .

(٤) أنظر / الذهبي : الكيثر ص ١٤٣ - مكنه المتبني .

فيذكر أنه خلال حكم السلطان الناصر فرج أصبح من الممكن أن نجس
ثلاثة أو أربعة تعيينات^(١) في شهر واحد وانتشرت المحسوية التي جعلها
رسول الله صلى الله عليه وسلم من أسباب سقوط المجتمعات فمن عايشه رضى الله
عنها قالت كانت مخزومية تستعير المتاع وتجده فأمر النبي صلى الله
عليه وسلم بقطع يدها فأتى أهلها أسامة بن زيد فكلوه فيها
فكلم النبي صلى الله عليه وسلم فقال له النبي يا أسامة لا أراك تشفع فسى
حد من حدود الله تعالى ثم قام النبي صلى الله عليه وسلم خطيباً فقال
"إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق
فيهم الضعيف قطعوه : والذي نفسى بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت
لقطعت يدها فقطع يد المخزومية"^(٢)

فالمحسوية تعطى الشيء لمن لا يستحق وانتشرت في عهد السلطان برقوق
حيث أنعم على قرية الأمير قجاس بأمر^١ المائة وتقدم ألف بالديار المصرية،
وهو أنشأه لا يحسن تلك اللفظ بالشهادتين^(٣)
اللفظ

(٢) انظر / د . سهام مصطفى أبو زيد : الحسنه في العصر المملوكى

الهيئة المصرية العامة الكتاب ص ١٩٨٦ .

(٢) سنن النسائي - شرح الحافظ السيوطى - الجزء السابع والثامن

المكتبة العلمية بيروت - لبنان ص ٧٥ .

(٣) انظر / بن تغرى : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ١٩٨ - المؤسسة المصرية

العامة .

ثانياً : العوامل الخارجية :-

تعتبر العوامل الخارجية بمثابة المعجل لسقوط الدولة المملوكية
التي أصبح سقوطها نتيجة حتمية بسبب انهيارها الداخلي .

١ - الصراع بين المماليك والبرتغاليين :-

عاشت الدولة المملوكية عيشة مترفة نتيجة للدخول الكبير التي حصلت
عليها عن طريق التجارة في المياه الشرقية والتحكم فيها بين الشرق والغرب^(١)
إنَّه من المعروف أنَّ حركة المغول التوسعية أدت منذ القرن السابع
الهجري الثالث عشر الميلادي إلى ضياع^(٢) أهم طرق التجارة الرئيسية
المألوفة بين الشرق والغرب وخاصة طريق الخليج الفارسي والطريق السبلي
المارسمرقند ، وذلك لم يبق أمام الدول طريق آمن بعيداً عن عبث
المغول سوى طريق البحر الأحمر ومصر .

وقد استغل سلاطين المماليك تلك الفرصة فحققت لهم دخلاً كبيراً .
فغرضت ضرائب باهظة على الواردات الأوربية . فبدأت الجهود لاكتشاف
طريق آخر غير طريق مصر فكان اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء
الصالح وتلك كانت أكبر كارثة تعرضت لها الدولة المملوكية نتيجة لذلك

(١) أنظر / د . نعيم زكي : طرق التجارة الدولية بين الشرق والغرب

أواخر العصور الوسطى ص ٣٧١ الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ١٩٧٣

(٢) أنظر / د . عبد الرحمن الراغب ، سعيد الفتاح عاشور : مصر

في العصور الوسطى ص ٥٢٨ .

الانقلاب المفاجئ* في طرق التجارة الدولية ما حرم سلاطين الممالك من المورد الأول الذي استمدوا منه أسباب قوتهم^(١) وعظمتهم وأدركوا خطورة الأمر فدخلوا في حروب مع البرتغاليين إلا أنها باءت بالفشل وكسب النصر الطريق الجديد^(٢) فلجأ سلاطين الممالك إلى فرض ضرائب مما أدى إلى حدوث اضطرابات وثورات عنيفة .

٢ - الاضطرابات الخارجية :-

جاءت من الخارج فقد اعتاد أمراء سوريا بأن يقوموا بحركات ثورية عنيفة ، شغلت جزءا كبيرا من جهود السلاطين لقمعها هذا إلى جانب غارات البدو المتكررة . وغزو المغول في عهد تيمور لنيك . وبضايقات قراصنة الفرنجة^(٣) في البحرين الأبيض المتوسط والأحمر .

٣ - الصراع مع الدولة العثمانية :-

سادت علاقات الود بين الدولة العثمانية والملوكية فترة من الزمن حيث إن الدولتين يربطهما ببعض الدين الإسلامي ولعل هذا إلى ذلك هو ترحب السالك ترحيبا واضحا بالانتصارات التي حققها العثمانيون

(١) انظر المرجع السابق ص ٥٢٨ .

(٢) انظر / د . أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الاسلامي ج ٥ ص ٢٦٣ -

مكتبة النهضة ١٩٩٠ .

(٣) انظر / د . علي ابراهيم : استخدام المصادر وطرق والبحث ص ٣٣ .

ضد بيزنطة ، وعندما سقطت القسطنطينية شاركت^(١) مصر وسوريا
العثمانيين في أفراحهم وفي مواكب النصر التي ازدهرت هنا وهناك
بناسبة هذا الحدث البهيج . ولكن العلاقات اتخذت طابعاً آخر
يتسم بالتوتر في عهد السلطان قايتباي سلطان الدولة المملوكية والسلطان
بازيد الثاني سلطان الدولة العثمانية فكانت تلك المناوشات^(٢) مقدمة
لحروب عديدة انتهت بسقوط الدولة المملوكية على أيدي العثمانيين
في موقعة الرايدانية ١٥١٧ م .

ومن أسباب انتصار الدولة العثمانية الأسباب التي ذكرناها
في سقوط الدولة المملوكية حيث كانت في مرحلة الشيخوخة على عكس الدولة
العثمانية هذا إلى جانب تميز الدولة العثمانية باستقرار نظمها
وتفوق أسلحة الجيش العثماني الذي اعتمد على الأسلحة النارية المتقدمة
مع اعتماد المالك على البطولة الشخصية .

وكان للإسلام عامل مهم في ميزان الدولة العثمانية إذ أن الدولة
المملوكية انتصرت على الصليبيين والمغول نتيجة لرفع راية الجهاد ، أما
في تلك المرة فالزحف دولة إسلامية تشيد باجتماع^(٣) كلمة المسلمين .

(١) أنظر / د . أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الاسلامي ج ٥ ص ٢٨١ -

مكتبة النهضة ١٩٩٠ .

(٢) أنظر / د . نعيم ذكي : طرق التجارة الدولية بين الشرق والغرب

اواخر العصور الوسطى ص ٣٢ .

(٣) أنظر / د . أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الاسلامي ج ٥ ص ٢٦٤ -

مكتبة النهضة ١٩٩٠ .

سقوط الدولة المملوكية :-

نتيجة للأسباب التي سبق ذكرها أصبح سقوط الدولة المملوكية
نتيجة حتمية .

فبطرد الصليبيين من العالم الإسلامي ونهاية المغول في العراق
وغرب آسيا ظهر في العالم الإسلامي قوتان كبيرتان هما الدولة العثمانية
والدولة الصفوية ببلاد فارس إلا أن الأولى من أنصار المذهب السني
والثانية من غلاة الشيعة فشبه بينهما نزاع طويل انتهى بانتصار العثمانيين
بقيادة السلطان سليم الأول وحدث نزاع بين السلطان قنصوة الغوري
والسلطان سليم الأول انتهت بالتقاء الجيشين العثماني والمملوكي فمضى
مرج دابق ١٥١٦ م وانتصر الجيش العثماني وقتل الغوري بعد أن دافع
عن البلاد بشجاعة فائقة ولكن لم يحالفه النصر وتولى الحكم طومان باي بعد
الغوري وقد حكم حكما حسنا^(١) في المدة التي قبض فيها على صولجان
الملك وكان محبوبا في البلاد جميعا وورهن على أنه شجاعا كريما عادلا^(٢)
في كل من عهدى نيابته عن قنصوه وسلطنته ويذكر أنه كان راغدا لتولى
الحكم حيث كانت الدولة منهارة إلا أن العلماء ضُغطوا عليه فقبلها والتقى
بجيسن العثمانيين عند الريدانية ١٥١٧ م وخانه بعض أتباعه
به الهزيمة وشنق طومان باي على باب زويلة ويذكر أن السلطان سليم أعجب

(١) أنظر/ وليم موير : تاريخ الممالك البحرية ص ١٢٦ - مطبعة
المعارف القاهرة .

(٢) المرجع السابق ص ١٨١ .

بشخصيته وعزم ألا يقتله لولا أن وشى به بعض الخونة فقتل ويقتله أنقطع
 حكم^(١) الممالك الجراكمة وهذا شأن الدنيا في أبنائها فتقلب بهم
 وتتحول عنهم . فسيحان من لا يزول ملكه .

(١) انظر / القرماني : أخبار الدول وأخبار الأول في التاريخ ص ٢٢٠ -
 علم الكتب بيروت - مكتبة العتيقي بالقاهرة .

الخاتمة

المخاتمة

وبعد هذا العرض لسيرة الدعوة في الدولة المملوكية نخلص إلى النتائج

التالية :-

١ - الصيغة الإسلامية لدولة المماليك :

فبرغم ما قيل عن دولة المماليك من ألسنة الأعداء الحاقدين من أنها دولة قامت على الصراع وسلب الشعب حقه إلا أننا نلمح أن الدولة المملوكية قد صبغت الصيغة الإسلامية قولاً وعملاً بدءاً واختتاماً دعوة وحرباً ، ودليلنا على ذلك أن هؤلاء المماليك جيئ بهم لتكوين الجيوش الإسلامية ليحاربوا المشركين ، والدليل الثاني الدعوة والدعاية والمنشآت الدعوية في تلك الدولة ، والدليل الثالث الانتصارات العدوية لتلك الدولة في كثير من المواقع الإسلامية ولا سيما عين جالوت ، والدليل الرابع : إحياء الخلافة العباسية .

٢ - الدين الإسلامي لا يرتبط بجنس أو لون بعيداً عن التعصب وعن القبلية وعن الجنس وعن اللون ، جاء الإسلام متحرراً من الارتباط بقوم دون قوم ، بل جاء للناس جميعاً ، وهذا ما حققته الدولة المملوكية كمثال عملي لذلك حيث أثبتت أن الجنس واللون والأبيض والأسود كله في ميزان الإسلام سواء وقد مدت تلك الدولة بالرغم من منشأها الأعجمي انتصارات تقارب أو تزيد ما حققه العرب .

٣ - قيمة الدعوة في نصرته الدول :

من حكمة الله في أرضه ، ومن مشيئته في خلقه أن جعل من أسباب النصر اتباع سبيله والتمسك بحبله ، ورأينا ذلك قد تحقق عمليا ونظريا ، ففي الجانب النظري تعهد ملوك تلك الدولة بنشر الدعوة فأيدوها بالثمين والغالي ، فأنشأوا النظم الإسلامية والمدارس النظامية والمكتبات والمدارس وانطلق الدعاة في أرجاء الدولة معلمين الناس دينهم وأثر ذلك في الجانب العملي أن صارت دولة المماليك دولة مهابة الجانب قوية المجد فبجرد ظهور قواتها على الحدود الإسلامية يطعن الغادي والرائح والمقيم والذاهب من المسلمين على أهلها وماله هذا الذي جعل تلك الدولة تجابه أكبر قوة من الهمجية على ظهر الأرض ألا وهي قوة التتار ما جعل الناس يطلقون على ملوك تلك الدولة اسم " سلاطين الإسلام " .

٤ - الحذر من أعداء الإسلام المدلسين :

ومن أهم ما توصلت إليه في ذلك المجال أن التسمع لأعداء الإسلام فيما يبيثونه بين ظهرانينا من سحوم يخفي علينا الحقائق الكبرى فلولا فضل الله علينا لسقطت هذه الدولة المملوكية من تراثنا الإسلامي العميق . فلقد تعرضت دولة المماليك لحملة شعواء من المدلسين والمستشرقين والعلماء والغربيين ، وغرضهم من ذلك أن يغفل التاريخ الإنساني تلك الدولة التي أنقذت البشرية من الهمجية والدمار ومن ثم لا يكون للمسلمين أي دور من إنقاذ البشرية من المصائب والدمار ، وعلى جانب آخر تهدف تلك الحملات الشعواء على السدول

الإسلامية وخاصة دولة الماليك إلى أن يفقد المسلم هويته ، ويفقد جذوره العريقة التي تربطه بالماضي فيعيش المسلم مسوخا لا أصل له ولا تاريخ يسند به في المستقبل .

• تسلط الأعداء يؤذن بزوال الدول :

من ضمن ما ابتليت به دولة الماليك الصراعات المستمرة بين بعض من الأشخاص ذوي النفوس المريضة فلقد تناسى أولئك النفر وأصرروا الصلة الإسلامية ومزقوا بعضهم من أجل دنيا زائلة ، ومتعة راحلة وكان ذلك الصراع الدموى يحتد ويبلغ أوجه عندما يموت أو يقتل الحاكم ، وتظهر الشورات والمظاهرات في الشوارع ويستمر القتل ، وهنا بلغ الجرح مداه ونخر السوس في عظام الدولة ، وتحقق فيهم وعد الله عز وجل : **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنَاصَرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ** **وَيُخْرِجَ أَقْدَامَكُمْ** . . . (١) **مردفهم المخالف** فحين عمل الماليك في آخر عهدهم بنقيض تلك الآية سلط الله عليهم عدوهم وكذلك سلط عليهم أنفسهم . فزالت دولتهم برغم ما حققت من مثل عليا وانتصارات مدوية ، وتلك حكمة الله في خلقه ، يعز من يشاء ويذل من يشاء بيد الخير وهو على كل شيء قدير . (وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب)

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم .

والحمد لله أولا وأخيرا

قائمة المراجع

قائمة المراجع

(١)

- ١ - إبراهيم على شوقى - مصر فى عصر المماليك الجراكمة - مكتبة النهضة - ١٩٦٠ م ٧٨ .
- ٢ - السيوطى - حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة - مطبعة الموسوعات .
- ٣ - العلاقات السياسية بين المماليك والمغول فى الدولة المملوكية الأولى - د / فايد عاشور - دار المعارف بمصر .
- ٤ - القرمانى - أخبار الدول وأثار الأول فى التاريخ - عالم الكتب بيروت مكتبة المتبنى بالقاهرة .
- ٥ - المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى - ابن تغرى - تحقيق محمد محمد أمين ، سعيد عبد الفتاح عاشور - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠ .
- ٦ - ابن كثير - البداية والنهاية - دار الفكر العربى .
- ٧ - الدينارى - سيرة الملك الظاهر بيبرس - بيروت .
- ٨ - ابن تغزى - النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة - المؤسسة المصرية العامة .
- ٩ - أحمد شلى - الخلافة العباسية - دار النهضة . ١٩٨٢ .
- ١٠ - إبراهيم حنين سعيد - البحرية فى عصر بلاطين المماليك - دار المعارف .
- ١١ - المقرئى - السلوك لمعرفة الملوك - القاهرة ١٩٧٠ .
- ١٢ - أبو زهرة - ابن تيمية حياته وآراءه الفقهية - دار الفكر العربى .

- ١٣ - البغدادي - الحوادث الجامعة والتجارب النافعة - المكتبة العربية .
- ١٤ - أحمد فراخ - المعاليك الفرنج في القرآن التاسع الهجري - دار الفكر العربي .
- ١٥ - أبو زهرة - الحديث والمحدثون - دار الفكر العربي .
- ١٦ - م د / أحمد شلبي - الحروب الصليبية يدوها مع مطلع الإسلام واستمرارها حتى الآن - دار النهضة المصرية ١٩٨٦ .
- ١٧ - ابن بطوطة - الرحلة - ط القاهرة ١٩٦٠ .
- ١٨ - أحمد صادق الجمال - الأدب العامي في مصر في العصر المملوكي ١٩٦٦ .
- ١٩ - الجبرتي تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار - دار الجيل بيروت .
- ٢٠ - إبراهيم أحمد عبد الفتاح - القاموس القويم للقرآن الكريم - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٣ .
- ٢١ - ابن العمري - مسالك المعاليك .
- ٢٢ - أحمد شلبي - موسوعة التاريخ الإسلامي - مكتبة النهضة ١٩٩٠ .
- ٢٣ - العيني - عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان - تحقيق محمد أمين الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩ .
- ٢٤ - العمري - مسالك الأبصار في ممالك الأمصار - تحقيق دوردو تياكرا فلسكي ١٣٠١ هـ .
- ٢٥ - ابن العماد الحنبلي - شذرات الذهب ج ٥ - دار الآفاق الجديدة بيروت .

- ٢٦ - ابن الأثير - الكامل في التاريخ ج ٩ - دار الفكر - بيروت
- ٢٧ - ابن خلدون - مقدمته - دار الفكر .
- ٢٨ - الخطيب الجوهري - نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان
هامش .
- ٢٩ - ابن إياس - بدائع الزهور في وقائع الدهور - الهيئة المصرية
العامة للكتاب ١٩٨٤ .
- ٣٠ - ابن حجر العسقلاني - التاريخ والمنهج التاريخي - دار اقرأ -
١٩٨٤ .
- ٣١ - الذهبي - الكائس - مكتبة المتنبى .
- ٣٢ - العيني - عمدة القاري في شرح صحيح البخاري - مطبعة البابي
الحلبي .
- ٣٣ - القلقشندي - صبح الأعشى ج ٣ - الهيئة المصرية العامة
للكتاب ١٩٧٧ .
- ٣٤ - ابن الفدا - المختصر في أخبار البشر - ج ٤ - بيروت .
- ٣٥ - ابن حجر العسقلاني - أنباء الغرب بأبناء العمر - تحقيق
د / حسن خيشي - القاهرة ١٩٧١ .
- ٣٦ - السيد وليم موير - تاريخ دولة المماليك البحرية - ترجمة
محمود عابدين وسليم حسن - دار المعارف القاهرة .
- أول دورانت - قصة الحضارة - عصر الإيمان ج ٢ - تحقيق
دور دوتياكرا فلمسكي ١٣٤٩ م .
- د / أحمد مختار العباد - قيام دولة المماليك الأولى في
صر والشام - مؤسسة شباب جامعة الإسكندرية ١٩٨٢ م .

(ب)

- ٣٧ - بيبس المنصوري - التحفة المملوكية - تحقيق د / عبد الحميد
 صالح حمدان - القاهرة ١٩٨٧ .
- ٣٨ - بطرس البستاني - دائرة المعارف ج ٩ .

(ج)

- ٣٩ - جمال الدين سرور - دولة الظاهر بيبس - دار الفكر
 العربي ١٩٦٠ .
- ٤٠ - د / جمال عبد الهادي - أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ
 الطريق إلى بيت المقدس - الوفا للطباعة والنشر .
- جزيق نسيم يوسف - هزيمة لويس التاسع من الأرض المقدس
 دار الكتب الجامعية ١٩٧١ .

(ح)

- ٤١ - حامد غنيم أبوسعيد - الجبهة الإسلامية في عصر الحروب
 الصليبية ج ٣ - دار الثقافة للطباعة والنشر ١٩٨٤ .
- حامد زيدان - صفحة من تاريخ الخلافة العباسية في ظل دولة
 المالিক - دار الثقافة ١٩٧٩ م .
- ٤٢ - جورج زيدان - تاريخ التمدن الإسلامي - ج ٤ - دار الهلال .

(د)

- ٤٣ - راسم رشدي - مصر والشراكسة - القاهرة ١٩٤٨ .

- ٤٤ - سهام مصطفى أبوزيد - الحسبة في مصر الإسلامية من الفتح
العربي إلى نهاية العصر المملوكي - الهيئة المصرية العامة
للكتاب ١٩٨٦ .
- ٤٥ - سعد ماهر - مساجد مصر وأولياؤها الصالحون - ج ٣ ، ص ٤
القاهرة .
- ٤٦ - د / سعيد عبد الفتاح عاشور - الحركة الصليبية صفحة شرقية
في تاريخ الجهاد الإسلامي في العصور الوسطى - دار الفكر
العربي ١٣٦٥ هـ .
- ٤٧ - سليمان محمد الطماوى - نظام الحكم والإدارة في الإسلام -
دار الفكر العربي .

- ٤٨ - شحاتة عيسى إبراهيم - القاهرة تاريخها ونشأتها - دار الهلال

- ٤٩ - د / على أحمد الخطيب - مجلة الأزهر عدد مايو ١٩٩٣ .
- ٥٠ - د / عبد النعم عبد الماجد - طومان باي آخر سلاطين المماليك
في مصر - مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٨ .
- ٥١ - على إبراهيم حسن - تاريخ المماليك البحرية - النهضة المصرية
ط ٣ - ١٩٦٧ .
- ٥٢ - على مبارك - الخطط التوفيقية - ج ١ - الهيئة المصرية
العامة للكتاب ١٩٦٩ .

- ٥٣ - د / علي السيد علي - القدس في العصر المملوكي . دار الفكر للدراسات والنشر .
- ٥٤ - د / عبد الطيف حمزة - الحركة الفكرية في مصر - دار الفكر العربي - ١٣٦٥ .
- ٥٥ - د / عبدالغنى محمود - التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك - دار المعارف .
- ٥٦ - د / علي سالم النباهين - نظام التربية الإسلامية في عصر دولة المماليك دار الفكر العربي .
- ٥٧ - د / عبد الرحمن الوافى - مصر في العصور الوسطى - دار النهضة ١٩٧٠ .
- ٥٨ - عبد الرحمن الجزيري - الفقه على المذهب حاشية - دار الفكر العربي .
- ٥٩ - د / عبدالكريم زيدان - أصول الدعوة - مكتبة القدس .
- ٦٠ - عبد الرحمن الجبرتي - تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار - دار الجيل بيروت .
- ٦١ - علي محفوظ - الإبداع في مضار الإبتداع - دار الإعتصام .

(ف)

- ٦٢ - د / فايد حماد عاشور - العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الأولى - دار المعارف ١٩٨٢ .
- ٦٣ - د / فؤاد عبد المعطى - المغول في التاريخ - من جنكيز خان إلى هلاكو - القاهرة ١٩٦٠ .

- ٦٤ - فتحية النبراوى - تاريخ النظم الإسلامية - دار النهضة
العربية ١٩٨٠ .

(ق)

- ٦٥ - د / قاسم عبده - دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي عصر
سلاطين المماليك دار المعارف ١٩٨٣ .

(ك)

- ٦٦ - كمال الدين صالح - العمارة الإسلامية - القاهرة .

(م)

- ٦٧ - د / محمد أحمد دياب - محاضرات في تاريخ الدعوة الإسلامية -
أسنيوط .

- ٦٨ - د / محمد يوسف موسى - ابن تيمية - الهيئة المصرية العامة
للكتاب ١٩٧١ .

- محمود شلتوت - السيف المهند في سيرة الملك المؤسس -
دار الكتاب العربي ١٩٦٦ ، ١٩٦٧ .

- ٦٩ - د / محمد محمد أبو زهرة - ابن تيمية حياته وآراءه الفقهية
دار الفكر العربي .

- ٧٠ - د / محمد جمال الدين سرور - دولة الظاهر بيبرس دار الفكر
العربي ١٩٦٠ .

- ٧١ - محمد عبد العزيز مرزوق - الناصر محمد ابن قلاوون - المؤسسة
المصرية العامة .

- ٧٢ - محمد محمد أمين - الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر . دار النهضة العربية . ١٩٨٠ .
- ٧٣ - محمد بن علي الإسحاقى - أخبار الأول فى من تصرف فى مصر من أرباب الدول القاهرة .
- ٧٤ - د / محمد كمال الفقى - الأدب فى العصر المملوكى - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦ .
- ٧٥ - محمود رزق سليم - عصر سلاطين المماليك - القاهرة ١٩٦٠ .
- ٧٦ - محمد الغزالى - ليس من الإسلام - مكتبة وهبة .
- ٧٧ - محمد الغزالى - خلق المسلم - دار الكتب الإسلامية .
- ٧٨ - د / محمد رفعت ومحمد حسونه - معالم تاريخ العصور الوسطى المطبعة الأميرية ببلاق ١٩٣٤ .

(ن)

- ٧٩ - نظير حسان سعداوى - صور ومظالم من عصر المماليك - مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٦ .
- ٨٠ - د / نعيم زكى - طرق التجارة الدولية بين الشرق والغرب فى أواخر العصور الوسطى - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ .

(و)

- ٨١ - وليم موير - تاريخ المماليك البحرية - مطبعة المعارف القاهرة .

فهرس المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة
شكر وتقدير واجلال	
المقدمة	أ - ٥
<u>الباب الأول : المالڪ</u>	١
الفصل الأول : نشأة المالڪ	١

- أصل المالڪ	١
أولا : ظهور المالڪ فى العالم الإسلامى	٣
ثانيا : ظهور المالڪ فى مصر	٣
ثالثا : طريقة ترتيبهم	٣
رابعا : كيفية انتقال السلطة من الدولة الأيوبية	
إلى الدولة المملوكية	٥
خامسا : العوامل التى ساعدت على نشوء دولة	
المالڪ	١٠
<u>الفصل الثانى : الحالة السياسية والحياة</u>	

الإجتماعية فى العصر المملوكى	١٤
أولا : الحالة السياسية فى العصر المملوكى	١٤
ثانيا : الحالة السياسية بعد عودة الخلافة	
العباسية	١٦
ثالثا : الحياة الإجتماعية فى العصر المملوكى	١٧

الموضوع	رقم الصفحة
الفصل الثالث : الحركة العلمية في العصر المملوكي	٢٩
أولا : التعليم في المكاتب	٣٠
ثانيا : التعليم في المدارس	٣١
ثالثا : المساجد	٣٥
* مظاهر ازدهار الحركة العلمية في (العصر المملوكي)	٣٧
الباب الثاني : المظاهر العامة للدعوة الإسلامية في العصر المملوكي	٤٢
الفصل الأول : دور سلاطين المماليك في خدمة الدعوة الإسلامية	٤٢
أولا : إحياء الخلافة العباسية	٤٣
ثانيا : محاربة الفساد	٤٣
ثالثا : محاربة البدع والفتن	٤٨
رابعا : القضاء على فرقة الحشاشين بسوريا	٥١
خامسا : الدعوة إلى الله بالسلوك وأعمال البر	٥٣
سادسا : إعمار المساجد	٥٧
سابعا : إكرام العلماء والدعاة	٥٩
ثامنا : تعظيم الأماكن المقدسة	٥٩
تاسعا : تربية النشئ من المماليك تربية إسلامية	

الموضوع	رقم الصفحة
الفصل الثاني : دور سلاطين المماليك في الدفاع -----	
عن البلاد الإسلامية	٦٥
أولا : الجهاد ضد التتار	٦٦
* بداية الصراع بين المماليك والمغول	٦٧
* معركة عين جالوت	٦٩
* نتائج معركة عين جالوت	٧٠
* مسيرة الجهاد ضد المغول بعد	
عين جالوت	٧١
* موقعة حمص	٧٢
ثانيا : الجهاد ضد الصليبيين	٧٤
ثالث : جهاد المماليك مع البقايا الصليبية	
في الشرق	٧٥
* المماليك وأرمينيا الصغرى	٧٥
الفصل الثالث : الفتوحات الإسلامية في العصر -----	
الملوكي وأثرها في خدمة الدعوة الإسلامية	٧٧
أولا : أهم الفتوحات الإسلامية في عهد الظاهر بيبرس	٧٧
١ - فتح قيسارية الشام	٧٨
٢ - فتح أرسوف	٧٩
٣ - فتح صفد	٧٩

الموضوع	رقم الصفحة
٤ - حملات تأديبية	٨٢
٥ - فتح انطاكية	٨٢
٦ - فتح حصن الأكراد وحصن عكار القرين	٨٣
ثانيا : أهم الفتوحات الإسلامية في عهد السلطان قلاوون	٨٤
١ - فتح المرقب	٨٤
٢ - فتح طرابلس	٨٥
ثالثا : أهم الفتوحات الإسلامية في عهد الأشرف خليل	
ابن قلاوون	٨٦
١ - فتح عكا	٨٦
٢ - نهاية الصليبيين بالشام	٨٨
* نتائج الفتوحات الإسلامية في عصر سلاطين	
المماليك	٨٩
الفصل الرابع : أبرز علماء العصر المملوكي وأثرهم في	
نشر الدعوة الإسلامية	٩٣
١ - العزيز بن عبد السلام	٩٥
٢ - ابن تيمية	٩٨
٣ - ابن حجر العسقلاني	١٠٤
٤ - جلال الدين السيوطي	١٠٧
٥ - بدر الدين العيني	١٠٩

الموضوع	رقم الصفحة
<u>الباب الثالث :</u> الدولة المملوكية بين الشبهات والسقوط	١١١
<u>الفصل الأول :</u> مزاعم ومفتريات حول الدولة المملوكية	١١١
أولا : اتهام المماليك بالدكتاتورية	١١١
ثانيا : اتهام المماليك بالسكر والمجون والعريضة	١١٥
ثالثا : اتهام السلاطين المماليك باضطهاد أهل الذمة	
<u>الفصل الثاني :</u> نهاية الدولة المملوكية	١٢٢
* أسباب سقوط الدولة المملوكية	١٢٢
أولا : العوامل الداخلية	١٢٢
ثانيا : العوامل الخارجية	١٢٩
الخاتمة	١٣٤
قائمة المراجع	١٣٧
المحتويات	١٤٥